

أعلام مؤرخى العرب والاسلام

# ابن حماد طوبيه

## الرجل والمرآة

إعداد

أسفار أبو بكر محمد



دار الكتب العلمية

بريدة - تونس

أَعْلَامُ مُؤْرِخِيِّ الْعَرْبِ بِالْإِسْلَامِ

ابن حلوان  
الرجل والرحلة

إعداد  
أسماء أبو بكر محمد

دار الكتب العلمية  
بيروت - لبنان

جَمِيعُ الْحُقُوقِ محفوظة  
لِلرَّوْكَيْبِ الْعَالَمِيَّةِ  
بَيْرُوت - لِبَنَان

الطبعة الأولى  
١٤١٢ - ١٩٩٢ م



مكتبة لسان العرب  
[www.lisanarb.com](http://www.lisanarb.com)  
lisanerab.com رابط بدليل

---

طبعت في: رَوْكَيْبِ الْعَالَمِيَّةِ بَيْرُوت - لِبَنَان  
مرتب: ١١/٩٤٩٢ تلكس: ناشر ٠١٢٤٥٦٤  
هَاتَف: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ ٨١٥٥٧٣

## ابن بطوطة - الرجل ، والرحلة -

[دراسة لابن بطوطة من خلال رحلته المسمّاة : تحفة النّظار ، في  
غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار تناوله بالتحليل كجغرافي ،  
ورحالة ، ومؤرّخ اجتماعي]

أسماء أبو بكر محمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لِإِلَافِ قُرِيشٍ . إِلَافِهِمْ رَحْلَةُ الشَّتَاءِ وَالصَّيفِ . فَلَيَمْبُدُوا  
رَبُّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمْنَهُمْ مِنْ خُوفٍ ﴾

صدق الله العظيم  
(سورة قريش / مكية)

[والناس كثير ولكن لا يقرّ لي إلا مرافقة الملاح والحادي]  
ابن قلاقس السكندرى  
(ت / ٥٦٧ هـ)

## توطئة

« لا نبالغ إذا قلنا إن الرحلات من أهم فنون الأدب العربي ، لسبب بسيط ، وهو أنها خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها هذا الأدب ، وتفصّل تهمة قصوره في فن القصة ، ومن غير شك من يهمنوه هذه التهمة لم يقرءوا ما تقدمه كتب الرحلات من قصص عن زنوج إفريقية ، وعرائس البحر ، وحجاج الهند ، وأكلة لحوم البشر ، وصناع الصين وسكان نهر الفولجا ، وعبدة النار والإنسان البدائي والراقي مما يصور الحقيقة حيناً ، ويرتفع بنا إلى عالم خيالي حيناً آخر » .

د . شوقي ضيف  
(الرحلات ، ص ٦)



رَابِطٌ بَدْيٌ

[lisanerab.com](http://lisanerab.com)

أ. علاء الدين شوقي

[www.lisanarb.com](http://www.lisanarb.com)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## رَحْلٌ ، يَرْتَحِلُ ، ارْتَحَالًا !!

الرحلة سلوك إنساني :

الإنسان بطبيعة ميال إلى الكشف والارتحال ، مفطور على حب الاستطلاع ومعرفة ما يحيط به من أسرار الوجود ، والتنقيب عما يعود عليه بالتفع ، لذلك حُبُّ له التنقل بين جنبات الأرض ، يسبر أغوارها ، ويكتشف ما تنتظري عليه جبالها وصحراؤها ، وبحارها من كنوز وخيرات ، وهو إلى جانب هذا الكشف قد يرى أقواماً لهم طباعهم وعاداتهم ، في تمواجات حياتهم ، وهو إذ ذاك يرصد أحوالهم ويسجل عاداتهم ، ويكتب - أو تنقش ذاكرته - صفاتهم في لقاء الغريب ، وإقبالهم عليه ، أو انصرافهم عنه .

ويصف مشاهد حياتهم وعاداتهم ، وأعرافهم وإن كانت تناقض أعرافه في بلده ، وحياته بين بني وطنه .

ومن غرائب طبع الإنسان جهه للاكتشاف ، فيضرب في مجاهل الأرض ويركب متون البحار ، ويمتنطي أجنحة الرياح ، وينجس أعظم المشاق ، ويصبر على أنواع المكاره من قيظ وزمهرير ، وبرد وجليد ، لكي يكتشف بلاداً جديدة أو يختلط طريقاً لم تعطاه قدم إنسان من قبل ، وقد كان هذا رأيه من قديم الزمان ، أما حينئذ فكان

مدفعياً بطلب الرزق واتجاع المراعي والمتاهات وأما الآن فيندفع إليه وللفوز على الأقران ، ولو لا ذلك ما عمرت الأرض بالسكان ولا انتشر فيها نوع الإنسان ، ومن هذا القبيل السعي إلى اكتشاف القطبين الشمالي والجنوبي ، وارتياد المناطق المتجمدة وما حولهما والاهتمام باجتياز البحار والقارات بطيارات تسابق النور في الهواء ، ففي كل ذلك لا يجد الرواد باباً للكسب ، ولا طريقة للرزق ، لذلك يُقدّم لهم على افتتاح المخاطرة وصبرهم ، وشجاعتهم في مواجهة الشدائـد التي تعرض لهم تضرـب على وتر حساس في النفس ، فيـنـظـرـ اليـهـمـ الناسـ نـظـرةـ الإـعـجابـ وـالـإـكـبارـ فـيـجـعـلـونـهـمـ فـيـ مـرـتـبةـ عـالـيـةـ .

لقد بلغ الرواد إلى أقصى الأرض وساروا في مناكبها العامرة والغامرة شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، هنا يردون صحراء قاحلة ، وهناك يصعدون على قمة جبل شاهق ، وهناك يقتربون مغارات من الجليد أو أدغالاً تمعج بالحيوانات الضارية ، والأفاعي السامة .

### الفوز لهم مرتبة :

ولم يبق أمامهم سوى أعلى طبقات الجو وأعمق أغوار البحار : والرواد يسير بعضهم في إثر بعض يفوزون آناً ويفشلون آونة ، ولكنهم مهما تعددت وجوه الفشل والفوز فإنهم يتخذون من الفوز مرتبة يرقون عليها إلى فوز آخر . ويترbccون للفشل حتى يشاروا لأخوانهم منه بفوز جديد .

ثم انطلقت الصواريخ لتعبر أجواز الفضاء تتخطى مجال العازبية

الأرضية وتكشف برواده أسرار الوجود على القمر وقد نبأ في ذلك الدولتان : أمريكا ، وروسيا منذ ١٩٥٧ م وشاركتهما الدول الأخرى ، وقد عبر الشعراً عن ذلك فقال المرحوم محمود غنيم في قصيدة له بعنوان : ( على سطح القمر ) :

ليهك يا أبو لو الانتصار بربك كيف طرت بهم وطاروا؟  
وكيف حملت ركبك في سلام فقرّ بهم على القمر القرار؟  
وكنا نحسب الأفلاك خلقاً غريباً لا يزور ولا يزار!!  
ويواصل الشاعر المصري ( محمود غنيم ) قصيده الرقيقة مبيناً إن حلم البشرية في الرخاء والسلام أجدى عليها من الوصول إلى القمر واحتراق أجواء الفضاء :

يقول الناس في شرق وغرب فخار لا يعادله فخار  
ومجد لا يفوز به سوى من له دأب عليه واصطبgar  
ومهر المجد إن تخطيه غال وبعض المهر موت واحتضار  
تعالوا ننكر للحرب حلاً ولا حاق بالأرض الدمار  
ولغز الموت استعصى عليكم فخركموا بعلمكم اعتذار

### الارتحال سمة عربية :

● وقد ارتحل العرب منذ فجر التاريخ من ديارهم وأحياناً طلباً للمرعى أو صلحًا بين القبائل ، أو وصولاً إلى بلاط ملك من الملوك فقد ارتحلوا إلى الشام حيث الغساسنة ، وارتحل إليها حسان بن ثابت في الجاهلية ومدحهم .

وارتحلوا إلى المنساجة اللخمين في بلاد الحيرة ، واتصلوا

بالنعمان بن المنذر ونال الشعراء جوازه وعطايته ولعل أشعار نابغة  
بني ذبيان خير مثال على ذلك .

وطاف الأعشى ميمون بن قيس الكبير ببلاد العرب كلها ليجمع  
المال من مدانهه وليحصل به لذاته في الخمر والطعام والنساء ،  
وهذه هي الأحمرة الثلاثة التي أنقذت ماله عن آخره كما يقول في  
شعره .

كذلك ارتحل عترة بن شداد العبسي ، والعرقش الأكبر وطرفة بن  
العبد البكري وغيرهم وغيرهم .

وفي الإسلام اتصل العرب بغير أنهم من الأمم الأخرى ، اتصلوا  
بالفرس وبالروم والأحباش ومصر بفضل الدين واللغة العربية التي  
بسعت سلطانها على هذه البلاد المفتوحة لأنها لغة الضاد الطامحة  
والحرصية على أن تسمع وتهضم كل ما تستطيع أن تلقاه أمامها من  
أنواع البحث والعلم والحضارة على اختلاف أنواعها وأنماطها ، فكل  
ما كتبه اليونان ، وأكثر ما كتبه الرومان ، وكل ما كتبته الشعوب  
الإفريقية والآسيوية التي عرفها الغرب - كل هذه الثقافات ، وكل هذه  
الحضارات أساغتها اللغة العربية ، وحوّلتها إلى ثقافة واحدة ،  
وحضارة واحدة ، وهي الثقافة العربية ، والحضارة العربية ،  
واستطاع شاعر كأبي تمام الطائي أن يقول :

باليشام أهلي وببغداد المسو وأنا  
بالرقمتين وفي الفساط وأخواتي  
وما أظن النوى تمضي بما صنعت  
حق تبلغني أقصى خرامسان

وأذكر هنا حول هذه النقطة المحاضرة القيمة التي ألقاها الدكتور طه حسين في المؤتمر الثاني للأدباء العرب الذي انعقد بيلودان السورية عام ١٩٥٦ وأرى فائدتها الجمة عند الحديث في هذا الموضوع .

### [فائدة الرحلات وأدابها]

أدب الرحلات فمن من فنون القول العربي يصنف مجالات الحياة المتعددة للرحلة الذي سجل رحلته أو حكها لغيره ثم سجلها ، وهي منابع ثرية بمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور ، فالرحلة وهو يطوي الأرض أثناء رحلته يغطي في نفس الوقت ملاحظة مظاهر مختلفة في الحياة يشاهدها أو يسمعها أحياناً وينقلها في رحلته ، ولا شك أن الرحاليين يختلفون فيما بينهم في دقة ملاحظتهم ، وفي درجة اهتمامهم ، وفي نوع هذا الاهتمام ، كما يختلفون أيضاً في درجة صدقهم وأماناتهم ، وفي تنوع فهمهم للأمور تحت الظروف المتغيرة التي يخضعون لها ، ومع ذلك فإننا ننظر من هذه الناحية إلى الرحلات كمبدأ وككل ، مهما كان بينها من اختلاف وتنوع في الانجاه والتقدير ، ومن هنا كان للرحلات قيمتان عظيمتان : قيمة علمية ، وأخرى أدبية .

### القيمة العلمية للرحلات

● أما القيمة العلمية : فقد تأتي لها مما تحتويه معظم هذه الرحلات للكثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية

والاقتصادية وغيرها مما يدونه الرحالة تدوين المعابن في غالب الأحيان ، من جراء الاتصال المباشر بالطبيعة وبالناس وبالحياة خلال رحلته ، وإذا حددنا هذه العلوم بأنها تسجيل الظاهرات المختلفة المتعلقة ب بيادينها ودراسة هذه الظاهرات وتفسيرها ، فإن الرحالة يمثل دور الناقل لهذه الظاهرات ليضعها بين أيدي الجغرافيين أو المؤرخين أو علماء الاجتماع مثلاً ، كل بحسب اختصاصه وهو يقرب من أحدهم بمقدار ما يلتجأ إلى دراسة ظاهرات اختصاصه وتفسيرها ، فإن كان علم الجغرافيا مثلاً يدرس ظاهرات سطح الأرض الطبيعية والبشرية ، ويقوم منهجه في ذلك على تسجيل هذه الظاهرات أو تفسيرها وتوزيعها على سطح الأرض إنما يعمل في خدمة هذا العلم من هذه الناحية على الأقل .

فهو عندما يصف الممالك والبلدان والأصقاع والأقاليم ، والمدن والمسالك ويتحدث عن المناخ والطبيعة ، وعن ظاهرات توزيع السكان وغير ذلك مما يعتبر من صميم الدراسات الجغرافية إنما يعتبر من هذه الناحية مرجعاً أساسياً ومعيناً كبيراً للعالم الجغرافي الذي يدرس تلك الموضوعات ، ومثل ذلك يمكن أن يقال في الرحلة بالنسبة لباقي العلوم التي يتعرض لمجال درسها ، ومن المعروف أن بعض الجغرافيين والمؤرخين العرب يعتبرون رحالين إذ كانوا بجمعون مواد موضوعاتهم عن طريق الرحلة قبل أي طريق آخر . . .

ومن المتفق عليه أن الرحاليين العرب قدموا على مر العصور خدمات جليلة في دراسة أحوال بلادنا العربية والإسلامية من مختلف نواحيها ولم تقتصر إفادتهم في ميدانهم هذا على البلاد الإسلامية

ووحدها ، وإنما تعدوها في رحلاتهم وأخبارهم إلى بلاد أجنبية أخرى في آسيا وإفريقيا وفي أوربة فيما بعد ولما يكن وصلها الإسلام ، فامدونا عنها بمعلومات من الدرجة الأولى خصوصاً إذا قورنت هذه المعلومات بما كان العالم يعرف عنها في القرون الوسطى حتى الكشف الجغرافية المتأخرة عند الأوروبيين .

## الرحلات وقيمتها الأدبية

● القيمة الأدبية : القيمة الأدبية للرحلات تتجلّى فيما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب ، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني .

ويرغم ما يتسم به أدب الرحلات من تنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف وغيره فإنّ أبرز ما يميّزه أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى مما حدا بأستاذنا الدكتور / شوقي ضيف إلى اعتبار أدب الرحلة عند العرب خير رد على التهمة التي طالما اتهموا بها الأدب العربي ، تهمة قصوره في فن القصة .

وقد صرف أصحابه في غالب الأحيان عن اللهو اللغوي والعبث اللفظي والتکلف في تزويق العبارة إيثاراً للتعبير المؤدي للغرض لنضجه بمعنى تجربة صاحبه مما يفتقده كثير من الأدباء المحترفين في بعض عصورنا الأدبية . ويقرر د/ حسني محمود حسين صاحب كتاب : (أدب الرحلة عند العرب) : إنّ أسلوب أدب الرحلة لم

بتخلص من بعض العيوب : فهو يعتمد على السجع أحياناً ، وينحو منحى الجفاف والصرامة العلمية أحياناً أخرى .

## مميزات أدب الرحلات

ومن أهم مميزات هذا الأدب أيضاً : تنوع مادته وغناها ، وهو يتراوح بين العلمية والشعبية والواقعية والأسطورية . تكمن فيه المتعة كما تكمن فيه الفائدة .

وبذلك يمكن لنا اعتبار أدب الرحلات العربي نمطاً من أنماط الأدب وفتناً من فنون القول الأدبي وتتجتمع فيه أساليب القصة والمسرحية والمقالة الأدبية دون أن يخضع لمعاييرها ومقاييسها التي قررها الأدباء والنقاد .

## رحالونا العرب قبل وبعد ابن بطوطة

الجوابون من العرب قبل ابن بطوطة وآثارهم :

تقديم :

لقد اقتضت أحوال البلاد الإسلامية أن تكثر الرحلات حين اتسعت رقعة الإسلام ، وانشعبت سلطة الخلافة بين الملوك والامراء ، حتى استقل بعضهم بحكم ما ولد من البلاد ، إذ كانت عناية الخلفاء حينئذ منصرفة إلى توثيق عُرُوا المودة بين أولئك الامراء ، ليقووا على صد غارات من يناؤتهم من الاعداء وقمع ما يحدث من الفتنة في داخل البلاد .

فجاءوا البلاد لدراسة أحوالها ومعرفة سهلها ووعرها ، وجبالها وأوديتها ، وطرقها البرية والبحرية ، وما تنتجه أرضها من أنواع الغلات ، حتى يجئي الخراج بنسبة ذلك ، ونظموا البريد وقاموا بالأبعاد بين البلاد .

ومن أولئك الجوابين الذين ساحوا في القرن العاشر الميلادي : ابن خرداذبة سنة ٩١٢ هـ ، واليعقوبي ، وقدامة سنة ٩٢٢ ، والبلخي سنة ٩٣٤ ، وابن حوقل سنة ٩٨١ . وقد كتبوا فيما شاهدوه من أحوال البلاد التي زاروها كتاباً قيمة .

وقد كانت الرحلات في أول أمرها رسمية لإيجاد الصلة والتعاون بين أبناء البلاد وحكامها . لهذا لم يتجاوز الجوابون حدود البلاد الإسلامية إلى غيرها ، فكانوا في كل ما كتبوه لا يعدون وصف ما شاهدوه في بلاد المسلمين وهذا ما جعل رحلاتهم ضيقة النطاق ، ذات فائدة محدودة .

ولكن التجار من المسلمين وغير المسلمين اجتازوا البلاد الإسلامية إلى ما تاختمها من الممالك الأجنبية ، يطلبون ما فيها من عروض التجارة ، وابتغاء للرزق بالضرر في الأرض ، فجابوا أقطار الأرض شمالاً إلى بلاد الفراء ، وطلبو المعادن في الجنوب حتى مقاطعات النوبة ، وفي الغرب وصلوا إلى جبل طارق . وفي الشرق إلى بلاد الحرير والماعج وأقطارها المختلفة .

وبالرحلات الرسمية والتجارية درست أحوال البلاد الإسلامية وما يجاورها من الممالك . ولكن التجار لم يكونوا ليتحرروا الصدق فيما ينقلون من الأخبار ، وما يشاهدون من أحوال الأمم التي خالطوها ، فالبعسا جل حكاياتهم وأخبارهم ثوباً من الخيال ، جعلها سائفة مقبولة ، وإن بُعدت من الحقيقة . وفيما ذكر في سفرات السنديbad البحري ، على ما فيها من الخيال ، ما يدلنا على ما كان يقاريه تجار ذلك العهد من مشاق السفر وويلاته .

وهناك عدا ما تقدم من الأسباب السياسية والتجارية سبب مهم يدعو إلى الرحلة وهو أداء فريضة الحج ، فقد أباحت هذه الأسفار لكثير من قصادي بيت الله الحرام أن يصفوا ما يشاهدون في طريقهم للحج . ومن هؤلاء ابن جبير الأندلسي ، وابن سعيد المغربي وغيرهم من الرحالة .

## آثارهم :

● معجم البلدان - وهو لياقوت الرومي [الحموي] . كتبه بعد أن رحل للتجارة ثلاث مرات وطوف ما طوف . ثم أتبعها سفرات أخرى لم تقطع إلا قبل وفاته بستين فقط من ١١٧٩ إلى ١٢٢٩ من الميلاد . وقد كان لكتابه هذا أثر عظيم في علم الجغرافية . وبعد (معجم البلدان) من الكتب النادرة التي لا يستغني عنها عالم أو متعلم .

● عجائب البلدان - وهو لأبي دلف بن مهلل الشاعر ، وهو من أقدم جوابي العرب وسياحهم . خرج من بلاده سائحاً ، تشوقه غرائب الشعوب ، وتدفع به الرغبة في رؤية عجائب المخلوقات ، فسافر إلى بلاد الهند مع أحد امرائها ، فزار بلاد الهند وكشمير وأفغانستان . ثم كتب كتابه هذا . وقد استعان به كثيراً ياقوت والقزويني في مادتهم .

● تاريخ الهند - لأبي الريحان محمد البيروني ، الفيلسوف الرياضي الفلكي الجواب وقد كان هو الآخر مولعاً بالأسفار ، مُجباً للانتجاع والغربة ، سافر إلى بلاد الهند وجاب آفاقها ودرس أخلاق أهلها دراسة علمية صحيحة أساسها النظر والاعتبار فجاء كتابه من أوفى الكتب تعريفاً بأحوال الهند كما يجمع الكثير من الباحثين .

● المسالك والعمالك - لأبي عبيد البكري الأندلسي ، ألفه بعد سياحة طويلة المدى في بلاد الشرق والغرب .

● رحلة ابن جبير - ألفها بعد أن جاب بلاد الشرق مرتين ، وقد

كتبها بعبارة مؤنفة ، إلا أنه يغلب فيها السجع المتتكلف . وهي كتاب جزيل الفائدة جليل النفع . وتمتاز هذه الرحلة عن رحلة ابن بطوطه بصدق الوصف ودقة الرواية وحسن العبارة .

● **المُغَرِّب** - وهو للكاتب الأديب ابن سعيد المغربي ، وقد أودعه كثيراً من أخبار أسفاره إلى بلاد المشرق ، بعد أن رحل إلى بغداد وحلب وبلاط الشام وببلاد أرمينية ، وما زال كلفاً بالأسفار وللتنقل بين الأقطار حتى مات في دمشق وهو راجع إلى بلاد المغرب سنة ١٢٧٤ م .

## أصوات على بعض الجغرافيين العرب وعلاقتهم بالرحلة

عرضت كتب التراث للكثير من رواد الرحلة والارتحال العرب الذين كان لهم باع واسع في ارتياح البلاد ومعرفة المسالك والممالك ومنهم :

- **السعودي** : وهو علي بن حسين السعدي .

ولد ببغداد ، وطلب العلم والتجلو منذ نشأته ، وجاب أعظم قسم من الممالك الإسلامية وغيرها من البلدان المحيطة بها ، وكان مولعاً بالعلم والأدب والحكمة والتاريخ والجغرافية .

نزل على اصطخر سنة ٩١٥ هـ ثم رحل إلى الهند وتفحص بعض أقطارها ثم عبر البحر الجنوبي ، ومنها اجتاز البحر إلى جزيرة العرب ، وربما انقطع عن الرحلة سنة ٩٤٠ هـ فلزم بيته واشتغل

بتصانيفه الجليلة التي أثبتت له عظيم الشهرة وتوفي سنة ٩٥٧ م (٣٤٦ هـ).

وللمسعودي كتاب (أخبار الزمان) ، ومن آثاره (الحدثان في التاريخ) وهو تاريخ كبير في التاريخ القديم ، يتحدث فيه عن هيئة الأرض ومدنها ، وجبالها ، وأنهارها ، ومعادنها وأخبار الأبنية العظيمة ، وشأن البدء وأصل النسل ، وانقسام الأقاليم وتباسين الناس ، ثم يتبع ذلك بأخبار الملوك الغابرة والأمم الدائرة في القرون الخالية ، وأخبار الأنبياء ، ثم ذكر الحوادث سنة سنة إلى وقت تأليف مروج الذهب سنة ٣٣٥ هـ.

ومما قاله المسعودي في مقدمة كتابه مروج الذهب : إنه أراد فيه إجمال ما بسطه في كتاب أخبار الزمان ، واختصار ما وسطه في كتابه الأوسط وذكر فيه ما أودعه ما في ذينك الكتابين مما ضمنهما وغير ذلك من أنواع العلوم وأخبار الأمم . وطبع كتاب مروج الذهب في مصر كما طبع في باريس مترجمًا إلى الفرنسية في ثمانية مجلدات ، وقال عنه ابن خلدون [عن كتاب مروج الذهب للمسعودي] في مقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر : شرح المسعودي فيه أحوال الأمم والأفاق لعهده في عصر الثلاثين والثلاثمائة غرباً وشرقاً وذكر نحتمهم وعواوينهم ، ووصف البلدان والبحار والممالك والدول ، وفرق شعوب العرب والجم ، فصار إماماً للمؤرخين يرجعون إليه وأصلاً يعلون عليه في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه . اهـ.

- ابن حوقل : هو أبو محمد بن العلي الموصلي التاجر الرحالة . وهو من جغرافي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي).

ولد في بغداد ، ونشأ بها ، وأقبل على التجوال في البلاد الإسلامية في عهد المسعودي يوم انقطع الأخير عن الارتعال إلى بيته ، واستمر ابن حوقل في حل وترحال ثمانى وعشرين سنة وذلك من سنة ٩٤٢ م إلى ٩٧٠ للميلاد دون أخبار رحلته ٩٧٦ م في كتاب سماه (الممالك والممالك) اقتصر فيه على ذكر صفات الممالك الإسلامية ولم يتعرض لغيرها إلا قليلاً متصلأً من ذلك في كتابه المذكور : « أما بلاد النصارى والجبرة فلم أنكلم عليها إلا يسيراً ، لأن الحكمة والدين والعدل وانتظام الأحكام يابى أن أثني عليهم بشيء من ذلك » وبالطبع نحن لا نوافق ابن حوقل على كلامه هذا . وقد ذكر أبو الفدا كتاب ابن حوقل في مقدمة كتاب تقويم البلدان وقال : إن كتاب ابن حوقل مطول ذكر فيه صفات البلاد مستوفياً غير أنه لم يضبط الأسماء ، وكذلك لم يذكر الأطوال ولا العروض (يقصد : خطوط الطول وخطوط العروض) وصار غالباً ما ذكر مجهول الاسم والبقعة . اهـ .

قرأ ابن حوقل ما سبقة وعاصره من كتب جغرافية ، وشفف بهذا العلم ، فصمم على أن يضع كتابه الذي قرر أن لا ياخذه من أفواه الناس ، ولا مما قرأه ، وإنما يأخذ عن عينه ومشاهداته في العالم الإسلامي فقط ، فكان تطوافه الذي استمر ثلاثين سنة ، ثم وضع كتابه ، وتصادف أن تشيع ، وكانت مصر يحكمها الفاطميون ، فتحول داعياً لهم ، واتجه بكتابه هذه الوجهة السياسية ، ويتبuzzح ذلك في حديثه عن البلاد التي كان يهم الفاطميين أن يستولوا عليها مثل الأندلس .

وعندما نقرأ ما كتبه عن الأندلس نحس أنه يكتب تقريراً يتكلّم عن غنى الأندلس ، وخصب أراضيها وعظمي جبابتها ، كما يشير

إلى ضعفها الحربي وأنه من السهل على الفاطميين فتحها ،  
فتتحول هذه الديار إلى ملكهم وتلک الأموال إلى خزائنهما ، وكان  
يحكم الأندلس إذ ذاك دولة بنى أمية التي أسسها عبد الرحمن  
الداخل .

وقد عاد ابن حوقل إلى رمي الأندلسيين بالضعف في الحرب  
ونقص استعدادهم فيها ليزيثن للفاطميين فتح هذه البلاد . ولا يهمنا  
ذلك الآن ، إنما تهمنا طريقة في الوصف الجغرافي ، فهو يقف  
ليعطينا معلومات طريقة عن البلدان ، وهي معلومات رحالة يصف  
ما يشاهده وصفاً دقيقاً ، ينقل إلينا فيه البلدة التي يصفها بكل ما فيها  
من أبنية وأسواق وحمامات ومساجد ومطاعم وملابس وعادات ،  
وهو مع ذلك لا يصمت فيذم كل من لا يدين بالولاء للفاطميين  
ويشنع عليهم دون هواة .

وبهذه الرحلة رحلة ابن حوقل (المسالك والممالك) أطلعنا على  
حياة أهل البلدان التي وضعها بجانب ما تحدث عن المسالك ،  
فكتابه ليس كتاب سرد جغرافي ، وإنما هو رحلة كبيرة في العالم  
الإسلامي ، رحلة جغرافية بدعة .

### أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي :

هو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ، من بيت المقدس  
بفلسطين ، وإليه ينسب ، وهو في رأي بعض المستشرقين أعظم  
الجغرافيين العرب في جميع عصورهم ، عاش في القرن الرابع  
الهجري (العاشر الميلادي) وجذبه الكتابة في علم الجغرافية ،  
فضرب في العالم الإسلامي وتنقل في ربوعه ، ثم أخذ يدون هذا

الكتاب « أحسن التقاسيم » مصورةً أحواله الجغرافية والعمارية ، مهمتها اهتماماً شديداً بالحديث عن اختلاف أهل البلدان الإسلامية في كلامهم وأصواتهم وأستههم وألوانهم ومذاهفهم ومكاييلهم وأوزانهم وتقودهم وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومباهتهم ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم وما يحمل من عندهم واليهم ، ومعادن السعنة والخشب ، ومواضع الفسيق والحدب ، والمشاهد والمراصد والخصائص والرسوم (الصفات والطبعات) و (الممالك والحدود).

### ابن خرداذبة :

هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد ، صاحب كتاب « المسالك والممالك » الذي طبع لأول مرة في مدينة ليدن بمطبعة برييل ، ١٣٠٦ هـ / ١٨٨٩ م . بعنابة المستشرق دي چوريه ويقع في ١٨٣ ص . وإن كنا لا نعرف بالتحديد متى ولد ابن خرداذبة أو متى كانت وفاته ، ولكن يظهر أنه ولد في نحو عام ٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م ، وتوفي حوالي ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م . وشغل وظيفة صاحب البريد والخبر بنواحي الجبال بفارس ، وربما كان هذا هو الذي دفعه إلى أن يضع كتاباً في علم الجغرافية . ذُكرت له أسماء عشرة كتب في : أدب السماع واللهم والشراب والطهي وأنساب العرب وغيرها . ولم يصلنا غير كتابه في المسالك والممالك الذي يعتبر أول مصنف كامل يصلنا في الجغرافية الوصفية ، واستغرق تأليفه الفترة من ٢٣٢ إلى ٢٧٢ هـ / ٨٤٦ - ٨٨٥ م . لقد قدم ابن خرداذبة بدوره وصفاً غزيراً عن بلاد الهند وسيلان والولايات الشرقية والهندية وببلاد الصين كلها ، لقد كان أثر هذا الكتاب واضحاً في كتابات من جاء بعده من الجغرافيين المسلمين المتقدمين أمثال :

اليعقوبي ، وابن رسته ، وابن حوقل ، والمسعودي . وكانت المادة التي جمعها مصدراً لما كتبوه.

### الإدريسي :

لم يكن بطليموس هو الأستاذ الحقيقي في جغرافية أوروبا ، لكنه الأدريسي : أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي الصقلي ، صاحب كتاب : نزهة المشتاق في اختراق الأفاق والذي فرغ من كتابته في يوم الجمعة أول رجب سنة ٨٧٢ هـ .

كان مولد الإدريسي سنة ١١٠٠ م ، وتخرج في قرطبة ، كان يعيش بالرمي في بلاط روجار الصقلي في متصرف القرن الثاني عشر . ومصورات الإدريسي التي تعرف بكروية الأرض كانت ترويجاً لعلم المصورات الجغرافية في العصر الوسيط بوفرتها وصحتها واتساعها .

وفي كتابه الذي ألفه باسم روجير ، ويسمى كتاب « روجار » ، أو الكتاب الروجاري ، والمعروف في تراثنا باسم « نزهة المشتاق في اختراق الأفاق »، قسم العالم الجغرافي اعتماداً على موازنة بين الأرض والكرة سبعين جزءاً رسم لكل جزء مصوراً وصف به جميع النواحي الخاصة .

ويجدر بنا أن نقر هنا بأن مقاييس الفلك من كشف العرب التي بها كشفوا عن الأخطاء الجسيمة لبطليموس في البحر المتوسط لأن مقاييس المسلمين لخط العرض صحيحة فيما عدا بعض دقائق ومقاييس بطليموس تكشف عن خطأ يبلغ عدة درجات .

لقد قام أجدادنا العرب ، وهم محظوظون في علم الجغرافية

بأسفار كثيرة ، ففي سنة ٨٥١ م نشر مؤلف عربي غير معروف قصة رحلته التي قام بها إلى الصين وذلك بالطبع قبل رحلة ماركو بولو بـ ٤٢٥ عاماً . وهو رحالة إيطالي كان ولد في فينيسيا (١٢٥٤ - ١٣٢٤) عبر آسيا كلها عن طريق منغوليا ، وعاد عن طريق سومطرة الأندونيسية بعد أن قضى سبعة عشر عاماً في خدمة كوبلاي الأكبر ، جمع قصة رحلاته في كتابة . ماركو بولو يعد كتابه بالنسبة لأوروبا وثيقة هامة وموسعة جغرافية لقارة آسيا كلها .

### سياح وملاحون :

ونبغ في الإسلام كثير من السياح الملائين الذين خاضوا عباب البحر وجرروا فيه إلى أقصاصي المعمورة : وأشهر هؤلاء السياح بل أولهم عهداً فيما ذكره المسعودي تاجر تسمى (سليمان) نبغ في النصف الثاني للعلاقة التاسعة للميلاد .

وكان مقيناً ببلدة سيراف على ساحل بحر فارس ، وسيراف هذه كانت الفرضة (المينا) العظيمة لفارس ، وكانت السفن تقصدها من جميع الأطراف حتى من الصين مشحونة بالسلع والأموال لاتساع نطاق التجارة يومئذ بين بلاد فارس والمشرق الأقصى .

ورحل سليمان طلباً لأسباب التجارة ، واجتاز بحار الهند ماراً بين سيلان وملقاً ودخل بحار الصين ، وقد دونَ أخبار رحلته أبو زيد البلخي في حدود سنة ٨٨٠ ، وزاد عليها ما نقله عن غيره ، وحدثه به السياح الذين احتلوا سواحل الصين ، وأخصهم ابن وهاب الذي جاب سواحلها ، وتفحص أحوال أهلائها ، وقصد قاعدة المملكة فدخلها ، وهي فيما رواه على مسيرة شهرين من البحر ، وقابل

سلطانها ، وقد ترجم كتاب أبي زيد إلى الفرنسيّة وطبع في باريس ١٧١٨ م ، وهو مفيد لأنّه أول كتاب حوى وصف البلاد الصينية.

ومن الاتصال بالصين عرف استخدام المحك (وهي الإبرة المغناطيسية).

- ومنهم (البيروني أبو السريhan محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي) :

المتوفى ١٠٣٨ صاحب كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية في النجوم والتاريخ وهو أول من حقق صفة بلاد السندين وببلاد الهند الشمالية.

- ونذكر الإدريسي وهو أشهر جغرافي الإسلام ونذكر أبا المجد إسماعيل بن هبة الموصلـي وكتابه مزيل الارتياـب عن مشتبه الأنـسـاب.

- ونذكر ياقوت الحموي ونقول عنه :

وطالع العربية وحصل العلوم واشتغل بدأة بـدء في الاتجـار وكان مولاـه يـنـفذـهـ إلى الأقطـارـ في طـلـبـ أـسـبابـهاـ ، لأنـهـ يونـانيـ المـولـدـ أـسـرـ فيـ حدـاثـتـهـ فـبـعـيـعـ منـ تـاجـرـ حـمـوـيـ مـقـبـمـ بـيـعـدـادـ ، وـنـشـاـ فيـ ظـلـ هـذـاـ المـولـىـ ، وـرـحـلـ يـاقـوـتـ غـيـرـ مـرـةـ إـلـىـ جـزـيـرـةـ كـيشـ الـوـاقـعـةـ فـيـ وـسـطـ بـحـرـ فـارـسـ ، وـكـانـ هـذـهـ الجـزـيـرـةـ وـقـتـذـ محـطـ رـجـالـ التـجـارـةـ بـيـنـ المـشـرـقـ وـالـمـغـرـبـ ، وـفـيـهاـ كـانـواـ يـتـبـادـلـونـ مـتـاعـ الـهـنـدـ بـحـاـصـلـاتـ مـصـرـ وـبـلـادـ الشـامـ وـالـمـغـرـبـ الـأـقـصـيـ ، وـلـمـ عـنـقـ مـولاـهـ تـعـاطـيـ التـجـارـةـ لـنـفـسـهـ وـلـاـ سـيـماـ الـاتـجـارـ فـيـ الـكـتـبـ وـالـتـالـيـفـ وـذـلـكـ مـاـ سـهـلـ لـهـ الإـحـاطـةـ بـجـمـيعـ الـعـلـمـ ، وـإـدـخـارـ أـشـتـاتـ الـفـوـائـدـ الـتـيـ دـوـنـهـاـ فـيـ

مصنفاته الجليلة ، وزاد عليها ما شاهده في أسفاره وحصل عليه في  
تطوافه وقد قضى سنين في الرحلة والتجوال في بلاد العرب ومصر  
والشام والجزيرة وخراسان حتى شواطئ نهر جيجون ، ورحل إلى  
القسطنطينية فيما رواه بعضهم عنه .

وله كتاب معجم البلدان وهو من أجل الكتب الموضوعة في  
الجغرافية وقد أحرز السبق عليها ، لأنه جاء أعم من غيره لترتيبه  
على حروف المعجم .

وذكر أمزجة البلدان وأهواها ومطالع نجومها وأنواعها وما  
اختصت به من الخصائص ، وضبط تصحيح الأسماء واشتقاقها  
وأمع بذكر من دفن فيها من الشعراء ومن ينسب إليها من العلماء  
والمحدثين .

ثم نذكر الفزويني وأبا الفدا وغيرهم وغيرهم .

## - رحلة الحج :

اهتم بهذه الرحلة حمد الجاسر العالم الأديب السعودي الذي  
ألف المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ، ومعجم قبائل  
المملكة العربية السعودية وأصول هذه القبائل ، وأصول الأسر  
المتحضرة في نجد ، ونشرها في مجلة العرب التي تصدر عن دار  
البيامة للبحث والترجمة والنشر في الرياض ومجلة العرب كما هو  
مصدر على غلافها تعنى بتاريخ العرب وأدابهم وتراثهم الفكري ،  
واهتم بها هذا العالم باعتبارها مسجلة أسماء بلاد مر عليها صاحب  
الرحلة وهو ذاهب إلى الحج ، فالرحلة بما فيها من هذه الأسماء من  
صميم اهتمامات هذا الأديب العالم .

## اهتمامات هذا الأديب العالم :

وكانت الرحلة للملك الأشرف قايتباي ، وتسمى : كتاب (المجموع الفريد في حجة المقام الشريف).

وقد ألفه الأشرف قايتباي لتدوين أخبار رحلته إلى الحج و كان من المماليك واهتم بتقوية الجيش ، وعنى بالعمران في مصر والشام ، ولا تزال الآثار التي خلفها أو بعضها باقية إلى الآن.

وأسلوب الرحلة ركيك أقرب إلى العامية بخلاف ما ينقل قارئه من الأسماء التركية التي تكاد لا تحصى ، ومن ذلك : ذكر بعض ما وقع له من المحاسن بمكة المشرفة .

- منها أنه أبطل ما كان على الصيادين بجدة من المكوس .

- ومنها أنه أمر بإعادة نصف العدنى (أي رسوم السفن الواردة من عدن) للسيد الشريف محمد بن بركات .

- ومنها أنه لم يتعاط محاكمات مدة إقامته ، ولا سفره ذهاباً ولا إياباً بل مشتغل بالعبادة .

- ومنها أنه مدة سفره وإقامته لم يكن ضرب غلاماً ولا غيره .

- ومنها زيادة تواضعه مع الفقراء ، وانطراح نفسه ، وتضريمه وخضوعه .

- ومنها كثرة طوافه في الليل وغالبه خفية .

- ومنها كثرة الصدقات الظاهرة ، وكثرة الصدقات الباطنة الذي (كذا) لم يطلع عليها غيره .

- ومنها أنه لما طلع إلى بيت الشريف فكان في غاية ما يكون من

الخضوع والاعتراف لمولاه وسيده ، برق العبودية والشكر له على ما  
أنعم به عليه .

- ومنها ما فعله من الخير والقربات والصدقات الجاريات  
بمدرسته التي انشأها بمكة المشرفة بباب السلام .

- ومنها أنه قرر بها مشائخ أربعة ، من كل مذهب واحداً ،  
ومعهم من الطلبة أربعون نفراً ، يحضورون في كل يوم مجتمعين ،  
وأيام الدروس يجتمع كل شيخ مع طلبة مذهبة ، ويدرس العلم  
و يجعلهم من أهل مكة ، وقرر بالرباط في الخلاوي الأفاقية ،  
والغرباء وجعل لهم شيئاً ، قرر لهم خبراً في كل يوم ودشيشة وقرر  
أياماً بمكتب السبيل ، وأرباب وظائف كالمؤذنين والبوابين  
والغراشين وغير ذلك ، وجعل لهم ما يقوم بحالهم في كل سنة ،  
على ما شرطه في وفقة ، تقبل الله منه وذكرها يطول .

ثم تعجل مع الأول في يوم الخميس المبارك الثاني عشر من  
شهر ذي الحجة وعاد إلى مكة المشرفة ، وسار الأول ، واستمر  
مقيماً بمكة المشرفة بقية يومه ، وبات ليلة الجمعة ، وصلى بها  
الجمعة ، وحضر أمير المحمل بالحاج ، وتوجه بقية يوم الجمعة  
من مكة .

واستمر مقيماً بمكة المشرفة إلى بعد صلاة العصر في يوم السبت  
المبارك الرابع عشر من شهر ذي الحجة ، طاف طواف الوداع ،  
وتوجه بباب عزورة (باب الوداع الآن) من طريق الشبيكة إلى أن نزل  
بسبيل الخوجي ، وحضر في خدمته السيد الشريف أمر مكة  
المشرفة ، وقاضي القضاة برهان الدين بن ظهيرة وجماعته ،  
والقاضي أبو الفتح نايب جدة ، وتجار مكة وأكابرها ، وألبس السيد

الشريف محمد بن بركات أمير مكة المشرفة كاملية مخملأ أحمر  
تماسيع ذهب ، مغربية سموراً وولده السيد بركات كاملية مخملأ  
أحمر سموراً ، والقاضي برهان الدين من ظهيرة كاملية صوف مغربية  
سموراً . . .

- هذا أنموذج من أسلوب الرحلة وهو أنموذج للكتابة رديء ،  
وكان هذا في القرن الناسع الهجري ، وكان أسلوب التأليف  
والكتابة ضعيفاً لكنه ليس بهذا الضعف المخزي .

والكاتب لهذا الأسلوب هو أحمد بن يحيى بن شاكر بن  
عبد الغني المعروف بابن الجيعان .

وقد بدت في الاختيار عن الاسماء التركية وألقابها حتى لا أشق  
على القارئ .

وأياً ما كان الأمر فهدف الرحلة نبيل شريف ، وقد أحسن  
صاحبها كل الإحسان بما أولاه من عطايا ومنع ومواهب من حيث  
الامراء ورؤساء البلاد والمدن التي مر بها فرحمه الله رحمة واسعة  
ونقبه في الصالحين الأبرار .

### في العصر الحديث :

ومن الرحاليين العرب في العصر الحديث القاضي المصري  
محمد سليمان عضو المحكمة العليا الشرعية ، الذي كان يحرص  
في رحلاته على الزي العربي المتمثل في زي الأزهر وعلمائه .

وقد رزق هذا الرجل قوة الملاحظة وحسن البيان ، ولهذا  
يستحق منا الإعجاب برسائله تحت عنوان (رسائل سائر) التي كانت  
تنشرها تباعاً جريدة المقطم المصرية .

## - رحلته إلى فلسطين :

جاب محمد سليمان أقطاراً وبلاداً ورصد عن هذه البلاد ما رصد وسجل مشاهده على أهلها فرحل إلى دمشق الفيحاء ، وإلى غيرها من البلاد العربية ورحل إلى أثينا ، ووازن بين أهلها وحسن نظامهم في حياتهم ومواطنيهم ، الأولون كانوا يوانين في كل شيء تلمع قوميتهم في الأسماء واللاقات بخلاف مواطنه .

## وقال عن رحلته إلى فلسطين :

اعتزمنا السفر إلى فلسطين ، فطالعتنا أنباؤها بالمزعجات وصادف يوم شخوصنا متتصف يوليو الذي ضرب موعداً فيها لمقاومة الانتداب [الإنجليزي على فلسطين وما تلاه من أحداث] فلم نقلق ولم ندبر ، إذ كان الاتكال على الله قوياً ، وليس يحزننا أن نرى قوماً من أخواننا بني الشرق يكذبون ويجدون في سبيل الحياة ، ولا خوف علينا إذ كنا عن الشعب مبتعدين ، على أننا رأينا السكينة والهدوء فيما مررنا به من المدن والقرى ، وإن كان الكلام بدءاً وعدواً في هذه القضية التي نهم إبناء تلك البلاد ولا يكادون ينسونها ، كما أنها تهم بني الشرق قاطبة ، وقد أتيح لنا أن نختلط بطبقات عدة ، وكنا نسمع لهم ، فرأينا أحاديثهم تدور على ثلات كلمات يكاد الإجماع ينعقد عليها .

أولاً : الحسرة والندامة على حكم الترك وتمني أيامهم أن تعود .

ثانياً : الغضب على الشريف ورميه بكل كريهة .

ثالثاً : التواصي بمقاطعة اليهود .

## و[آثار ملك زائل شيدت على أمل الخلود]

تلك آثار الدولة التركية بثـر سـبع وغيرها مما رأيناه للآن بـفلسطـين آثار ملك زائل شـيدـتـ علىـ أـمـلـ الخـلـودـ ،ـ بـثـرـ سـبعـ بلدـ كـانـهـ فـيـ منـاخـهـ وـأـرـضـهـ وـبـنـائـهـ عـيـنـ شـمـسـ أوـ مـصـرـ الـجـدـيـدـةـ أـقـامـهـ التـرـكـ مـنـ نـحـوـ عـشـرـيـنـ عـاـمـاـ عـلـىـ رـسـمـ الـهـلـالـ فـيـ سـرـتـهاـ مـسـجـدـ فـسـيـعـ بـمـذـنـةـ مـنـ طـرـازـ مـآـذـنـ الـقـسـطـنـطـيـنـيـةـ وـفـيـ وـسـطـ الـهـلـالـ (ـ سـرـايـ )ـ الـحـاـكـمـ وـدارـهـ وـمـكـانـ (ـ الـبـولـيـسـ )ـ وـالـمـدـرـسـةـ وـدارـ الـبـرـقـ وـالـبـرـيدـ مـبـنـيـةـ جـمـيعـهـاـ مـنـ الـحـجـرـ الصـلـدـ عـلـىـ نـظـامـ يـسـرـ الـعـيـنـ بـهـاـوـهـ وـرـوـاـهـ ،ـ مـبـانـيـهـاـ ذـاتـ سـقـوفـ مـنـ الـقـرـمـيـدـ مـدـحـيـةـ لـلـمـطـرـ ،ـ وـالـشـوـارـعـ وـاسـعـةـ مـتـقـاطـعـةـ ،ـ وـبـهـاـ الـمـاءـ وـالـنـورـ ،ـ وـفـيـهـاـ مـنـ بـقاـيـاـ الـتـرـكـ أـيـامـ الـحـربـ مـاـ يـهـوـلـ مـنـظـرـهـ ،ـ وـبـقـىـ عـلـىـ وـجـهـ الـدـهـرـ يـسـجـلـ أـنـ النـصـرـ بـيـدـ اللهـ يـؤـتـيهـ مـنـ يـشاءـ .ـ

والـكـاتـبـ هـنـاـ يـتـعـاطـفـ فـيـ كـاتـبـهـ مـعـ بـنـيـ الشـرـقـ بـلـ مـعـ أـخـواتـهـ الـفـلـسـطـينـيـنـ وـهـمـ تـحـتـ حـكـمـ الـاـنـدـابـ الـبـرـيطـانـيـ الـذـيـ سـنـهـ لـلـإـنـجـلـيزـ وـعـدـ (ـ بـلـفـورـ )ـ الـمـشـوـمـ فـمـاـ بـالـهـ لـوـرـأـيـ الـقـضـيـةـ الـآنـ وـمـاـ صـارـتـ إـلـيـهـ ؟ـ

وـهـوـ يـعـبـرـ عـنـ أـمـيـةـ أـهـلـ فـلـسـطـينـ فـيـ أـنـ يـعـودـ حـكـمـ الـأـتـرـاكـ وـيـتـحـسـرـونـ عـلـىـ ذـهـابـهـ وـمـوـتهـ لـأـنـهـمـ أـصـبـحـوـاـ تـحـتـ يـدـ مـنـ لـاـ يـرـحـمـ مـنـ الـإـنـجـلـيزـ وـالـيـهـودـ .ـ

وـفـيـ أـسـلـوـبـهـ نـفـهـ الـإـصـلـاحـاتـ الـتـيـ كـانـتـ تـقـيمـهـاـ تـرـكـيـةـ وـهـيـ تـحـكـمـ الـبـلـادـ تـحـتـ ظـلـ بـقاـيـاـ الـخـلـافـةـ الـإـسـلـامـيـةـ .ـ

● وهكذا نجد أدب الرحلة يفيد :

- أ - في الجغرافية ومعرفة البلاد ومناخها والمسالك والممالك .
- ب - في التاريخ وتسجيل ما حل بالبلاد من عمران أو تخريب على يد الظالمين .
- ج - في معرفة عادات الناس وتقلبهم في حياتهم ونظام مجتمعهم .
- د - أدب الرحلة قريب من أدب القصة ، إذ يسرد الكاتب ما صادفه وقد يجري حوار بينه وبين من قابلهم في هذه البلاد النائية عن موطنه .
- ه - أسلوب الكتابة في أدب الرحلة يتسم بطابع العصر وينعكس عليه ما ينعكس على أسلوب التراث في العصر الذي كتب فيه .
- و - أسلوب أدب الرحلة أسلوب شائق بما فيه من واقع غريب وبما فيه من أساطير لا يكاد يصدقها العقل .
- ز - ومع ذلك فأدب الرحلة يضيف جنساً من الأجناس الأدبية في التراث إلى جانب أجناسه الأخرى من خطابة ووصايا ورسائل وغير ذلك .

الرحلات :

(أ) رحلات جغرافية :

- المسالك والممالك لابن حوقل ( القرن الرابع الهجري ) .

- أحسن التقاسيم للمقدسي ( القرن الرابع الهجري ) .
- نزهة المشتاق في اختراق الأفاق لإدرسي ( القرن الخامس الهجري ) .
- آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني ( القرن السابع الهجري ) .

**(ب) رحلات بحرية :**

- رحلة التاجر سليمان ( القرن الرابع الهجري ) .
- عجائب الهند بره وبحره وجزائره ليزرك بن شهريلار الناخداه ( القرن الرابع الهجري ) .
- رحلة الفتية المغوروين ( عن نزهة المشتاق ) .
- كتاب البلدان لابن الفقيه وفيه كلام عن عرائس البحر ، وعند القزويني في ( آثار البلاد ) و ( عجائب المخلوقات ) .

**(ج) رحلات في الأمم والبلدان :**

- « تحفة الأصحاب ونخبة الأعجاب » و « المغرب في عجائب المغرب » لأبي حامد الأندلسي .
- رحلات الشاعر / أسامي بن المنقذ وحرروب الفرنجة في كتابه « الاعتبار » .
- رحلات عبد اللطيف البغدادي .
- رحلات البيروني .
- رحلات الheroic السائع ( ت / ٦١١ هـ ) .

- رحلات ابن رشد السبتي (ت / ٧١١ هـ) .
- رحلات ابن خلدون .
- رحلة الطهطاوي إلى فرنسا وأوربة .
- كتابات أحمد زكي باشا .
- رحلة البستانوني إلى الأندلس .
- الجزء الثاني من حديث عيسى بن هشام لمحمد المولىحي ، حيث وصف الغرب ومعرضًا من معارض باريس الفرنسية .
- رحلة محمد حسين هيكل باشا للأراضي الحجازية (كتاب من وحي النبوة) .
- رحلة أحمد حسين باشا إلى الصحراء الغربية .
- رحلات محمد ثابت .
- رحلات محمود تيمور (أبو الهرول بطير) .
- ثم أهم رحلتين خلفتهما عصورنا الوسطى ، وهما :
- رحلة ابن جبير .
- رحلة ابن بطوطة - وهو موضوع هذه الصفحات المتواضعة .

### **ابن بطوطة - الرجل ، والرحلة :**

أما أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الطنجي المشهور بابن بطوطة فهو من أعظم متجمولي الإسلام رحلة وأكثرهم استيعاباً للأخبار .

وهو صاحب كتاب (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) .

خرج من طنجة مسقط رأسه ، وتجول في المغرب وأفريقيا وطرابلس وبرقة ومصر وفلسطين وبلاد الشام ، وطاف ببلاد العجم والعراق وبلاد ما بين النهرين ، وعرج نحو الجنوب فدخل بحر بربرة وجاء كيلوا على ساحل إفريقيا الشرقي ، وعاد إلى هرمز مخترقاً القسم الجنوبي من جزيرة العرب ، وحاب ببحر فارس المشهور بمقاصد اللؤلؤ ثم ذهب حاجاً ثانياً ورحل من العجاز إلى الشام ، ومنها دخل الأنضول وتجلو فيها .

وكان يتصل بالسلاطين ويوفد منهم إلى ملوك سلاطين آخرين .

ففي سنة ١٣٥٢ م ذهب رسولاً من سلطان مراكش إلى بلاد السودان وعبر البلاد إلى وراء تمبكتو ثم عاد إلى فارس وفيها وافته المنية سنة ١٣٧٧ م .

- ابن بطوطة في السودان [حكاية القاضي والجرادة] :

أقام ابن بطوطة في السودان رسولاً من قبل سلطان مراكش كما أسلفنا وعرف أحوال الناس وعادتهم ، ووقف على كثير من أسرارهم وأعراضهم ونسوق بعض ما قاله :

وحضرت مجلس السلطان في بعض الأيام ، فأتى أحد فقهائهم وكان قدم من بلاد بعيدة وقام بين يدي السلطان وتكلم كلاماً كثيراً ، فقام القاضي فصدقه ثم صدقهما السلطان وكان إلى جانبي رجل من البيض فقال لي : أتعرف ما قالوه ؟

فقلت : لا .

فقال : إن الفقيه أخبر أن الجراد وقع بيلادهم فخرج أحد صلحائهم إلى موضع الجراد فهاله أمرها ، فقال : هذا جراد كبير ، فأجابت جرادة منها : إن البلاد التي يكثر فيها الظلم يبعثه الله لفساد زرعها ، فصدقه القاضي والسلطان وقال السلطان عند ذلك للامراء : إني بريء من الظلم ، ومن ظلم منكم عاقبته ، ومن علم بظلم ولم يعلني فذنوب ذلك الظالم في عنقه والله حسيبيه وسائله !! .

ولما قال هذا الكلام وضع الفقهاء عمامتهم على رؤوسهم وتبرؤوا من الظلم . وحضرت صلاة الجمعة يوماً فقام أحد التجار يشكوا من طلبة مسوقة ويسمى بأبي حفص ، فقال يا أهل المسجد : أشهدكم في دعوتي إلى رسول الله ﷺ ، فلما قال ذلك خرج إليه رجال من مقصورة السلطان فقالوا له : من ظلمك ؟ من أخذ لك شيئاً ؟ فقال ما معناه : إن رجلاً من أولياء الأمر أخذ منه ما قيمته ستمائة مثلثاً وأراد أن يعطيه مائة مثلثاً ، فبحث السلطان عنه فحضر بعد أيام وصرفها إلى القاضي ، فثبت للناجر حقه فأخذته ، وبعد ذلك عزل هذا الوالي من عمله .

ثم قال ابن بطوطة بعد ذلك : من أفعالهم الحسنة قلة الظلم ، فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه . . . وفي هذا تناقض كبير بين الشكوى من الظلم ثم نفيه عنهم وإنهم أبعد الناس عنه !!!

وكما نرى فيما سبق أنه أنطق الجرادة إذ عَبَرَت عن الظلم والواقع

في البلاد وهذه أسطورة وخيال لا يتفق مع العقل والمنطق ومثل هذا  
كثير ستتجده عند ابن بطوطة .

### ● ابن بطوطة وكتابه الرحلة :

والواقع أن ابن بطوطة لم يكتب رحلته بنفسه ، وليس الأسلوب  
الذي نقرؤه فيها أسلوبه ولا السجعات سجعاته ، وهذا الكلام لا يقال  
على عواهنه ، وإنما أملأ ابن بطوطة هذه الرحلة على كاتب السلطان  
والذي كتبها محرر من المقطعين إلى بايه (السلطان) أمره أن يضم  
أطراف ما يعلمه الشيخ في تصنيف يكون على فوائده مشتملاً ولنيل  
مقاصده مكملًا ، متوكلاً تقيع الكلام وتهذيبه ، معتمداً إياضاحه  
ونقريبه ، ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ، ويقتضم الانتفاع يدرها عند  
تجريده من الصدف .

ويقول الكاتب الذي سجل الرحلة (البطوطية) : وربما أوردت  
لحفظه على وضعه فلم أخل بأصله ولا فرعه ، وشرحت ما أمكنني  
شرحه من الأسماء العجمية ، لأنها تلبس بعجمتها على الناس ،  
ويختفي في ذلك معناها مجهد القياس .

### ● فهل كان ابن بطوطة أعجمياً لا يتقن الكتابة بالعربية ؟

### ● أو على الأقل ليست لديه ملحة الكتابة الأدبية ؟

وهذا يثير الشك في الرحلة ولكننا نقرر إن حكايات الرحلة  
وخرافتها ومواضيعاتها التي شدت انتباه صاحبها مما يجعله أكثر قرباً  
إلى المعتقدات الشعبية ، بل ومن كبار معتقداتها وعلينا أن نمدح  
الرحلة - على الرغم مما أثير حولها - لأنها تحتوي على كثير من

الموضوعات التي تهم الجغرافي والمؤرخ والعالم الاجتماعي والأديب .

على كل حال ستتناول ذلك تفصيلاً بإذن الله .

### الحياة والارتحال

نشأ ابن بطوطة في طنجة وأقام بها حتى ١٣٢٥ . واسمه ابن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي ، وكتبه أبو عبد الله ، ولقبه شمس الدين ويعرف بابن بطوطة ، وكان مولده في طنجة في ١٧ من رجب سنة ٧٠٣ هـ . وقد أقام بها حتى بلغ الثانية والعشرين من عمره . وقد نشأ بين أهله وذويه في بسطة من العيش وطمانينة بال ، فلم يكن يخطر له أن يزاييل أهله ، وبهج روطنه ويسافر إلى غير بلاده ، حتى دعاه داعي الحج ، فخرج ملبياً داعي الله .

● إن المطلع على رحلة ابن بطوطة يستشف من خلال كلامه عن نفسه أنه كان شديد التأثر ، يقظ الوجدان ، رقيق العاطفة ، تقىً محباً لوالديه معظماً للأتقياء والصالحين ، يزور قبورهم للتبرك بهم ، ويروي كثيراً من كراماتهم وما ينسب إليهم من أعمال البر ، كإقامة الروايا والتکايا ، وحبس الأوقاف الكثيرة عليها ، وما يدل على شدة ورعه وتقواه أنه كان لا يفتئذكر أن ما منع به في حياته من نعمة وجاه إنما كان لأنه حج أربع حجات .

أما حبه لوالديه فقد أفصح عنه أيما إفصاح ، حيث يقول في مقدمة رحلته : إنه تركها ( فتحمل لبعدهما وجداً عما لقي من الفراق نصباً ) وأنه لما عاد من رحلته الأولى وبلغه موت أمه حزن حزناً شديداً قطعه عن كل شيء حتى صلت بحاشية الملك أبي عنان في فاس المغربية .

ونحن لا يمكن لنا إنكار الدور الذي قام به أفراد حاشية الملك الفاسي فهي مصدر ما لقيه من تكرييم ونعمة .

ترك الرجل عالمه وسافر لزيارة قبر أمي الحنون . ويحكي عن ابن بطوطة سرعة تأثره وحساسيته الزائدة ونقرأ قوله وقد وصل إلى تونس الخضراء فبرز أهلها للقاء العالم أبي عبد الله الزيبيدي ، ولقاء أبي الطيب بن القاضي أبي عبد الله النفزاوي . فا قبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ولم يسلم عليه أحد لعدم معرفتهم به ومعرفته بهم . فوجد من ذلك في نفسه ما لم يملك معه سوابق العبرة . واشتد بكاؤه . فشعر بحاله بعض الحاج ، فأقبلوا عليه بالسلام والإيناس . وما زالوا يؤانسونه بحديثهم حتى دخل المدينة المنورة ونزل فيها بمدرسة الكتبين .

وما ظنتنا برجل يعد من أفضل أصدقائه وأوفاهم له من يقدم عليه فيلقاه بالبشر والإيناس ، ويكرمه ولو مرة واحدة . ولعمري تلك سجية إن دلت على شيء فإنما تدل على ما في الرجل من صفاء النفس وطهارة القلب ونقاء السريرة ، وإن لم يكن فيها الاعتداد بالأخذ بالحذر والحبطة في اصطفاء الأخوان والاصدقاء . ولا سيما من كان مثله غريباً نائياً عن أهله وبلاده .

### الرحلة الأولى :

قام ابن بطوطة بثلاث رحلات واسعة النطاق . جاب فيها أكثر ما عرف في زمانه من البلاد وذلك في الفترة ما بين ( ١٣٢٥ م ) و ( ١٣٥٤ م ) وكانت رحلته الأولى ما بين ١٣٢٥ م و ١٣٤٩ م .

● وفي رحلته الأولى هذه قضى ابن بطوطة أربعين وعشرين سنة : فخرج من طنجة المغربية في سنة ١٣٢٥ م للحج . فمر بمراكش (المغرب) والجزائر وتونس وطرابلس العاصمة الليبية الآن ومصر ، ثم قصد عيذاب على البحر ماراً ببلاد الصعيد المصري ليجتاز البحر الأحمر ، فلم يتهيأ له ذلك ، للحجرب التي كانت قائمة بين المماليك والمجاهد . فعاد إلى الفسطاط المصرية ، ثم رحل عنها إلى فلسطين العربية ولبنان الشامية وسوريا وأرض الحجاز المباركة ، فحج حجته الأولى . ومن مكة المكرمة توجه إلى بلاد العراق وإيران وتركيا (الآنضول) . ثم عاد إلى مكة مرة أخرى . فحج حجته الثانية . وأقام بها سنتين . ثم غادرها إلى اليمن الشمالية ثم الجنوبية ليعود ليجتاز البحر إلى إفريقية الشرقية . ثم عاد منها ماراً بجنوبي جزيرة العرب حتى الخليج العربي (الفارسي) . فزار عمان والبحرين والحساء ، ثم رجع إلى مكة ، فحج حجته الثالثة ، ثم خرج من مكة إلى بلاد الهند ، فمر بخوارزم ، وخرسان وتركمستان وأفغانستان وكابول والسندي وتولى القضاء على دلهي الهندية على المذهب المالكي للسلطان محمد شاه . ولما أراد السلطان محمد أن يرسل وفداً إلى ملك الصين . خرج ابن بطوطة فيه وفي عودته من بجزيرة سرنديب (سيلان أو سيرلانكا) وجزائر الهند والصين . ومن ثم عاد إلى بلاد العرب عن طريق سومطرة الأندرلسيبة سنة ١٣٤٧ م ، فزار بلاد العجم (إيران) والعراق وسوريا وفلسطين ومنها إلى مكة ، فحج حجته الرابعة .

وبعد هذا رأى أن يعود إلى وطنه فمر بمصر وتونس والجزائر  
ومراكش فوصل إلى فاس المغربية سنة ١٣٤٩ م.

## الرحلة الثانية :

لم يقم ابن بطوطة في فاس طويلاً حتى وجد في نفسه نزوعاً إلى السفر إلى بلاد الأندلس ، فمر في طريقه بطنجة وجبل طارق وغرناطة ثم عاد إلى فاس .

## الرحلة الثالثة :

كانت رحلته الثالثة من ١٣٥٢ م إلى ١٣٥٤ م وكانت إلى بلاد السودان مبتدئة بسجل ملامة هم تغازلاً ومالي وزاغري وكاريبي وتمبيكتو وتوكدا وهكار ، ومن هناك رجع إلى فاس . وبعد ابن بطوطة أول سائح كتب عن مجاهيل إفريقيا المتوسطة .

## حكاية عجائب الأسفار

اتصل ابن بطوطة بالسلطان أبي عنان من بنى مرiven ، أقام في حاشيته يحدث الناس بما رأه من عجائب الأسفار . وهم يستغربون ذلك . فلقي من لدن السلطان من جميل الرعاية ما حبب إليهبقاء ضمن حاشيته ، حتى مات في بلاد فاس المغربية سنة ١٣٧٧ م ولما علم السلطان بأمره وما ينقله من طرائف الأخبار عن البلاد التي زارها أمر كاتبه الأديب محمد بن جزي الكلبي أن يكتب ما يعلمه عليه الشيخ ابن بطوطة ، فانتهى من كتابتها سنة ١٣٥٦ م وسماها : (تحفة النظار ، في غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار) .

- كان ابن بطوطة يحدث الناس بما رأى من عجيب صنع الله في خلق الحيوان والنبات وما شاهده من أخلاق الأمم وعاداتهم

وأحوالهم . مما يعد بالنسبة لهم غريباً لأنهم لم يروه أو يقعوا على مثله . فانبرى له جماعة من معانديه وحاسديه ، ومن نفوساً عليه منزلته المكرمة لدى السلطان ، يكذبونه ويصفون رأيه ، ويعدون ما أتى به حديث خرافة وافتراء . ولكنه كان يلقى من بعض المنصفين تأييداً وإنصاتاً لما يرويه ما دام في حيز الممكن والمعقول . وما دام لم يقم على نفيه دليل من السماع أو الرؤية .

**ابن خلدون يقول :**

وقد نبه ابن بطوطة برحلته الأفكار وأيقظ الأذهان بعد طوال سبات ، ووجه الأنظار . لذلك كان بدليهاً أن يكون الناس بين مصدق ومكذب . وقد أتى ابن خلدون - عالمنا الفذ ورائد علم الاجتماع - في مقدمته بما يكشف لنا عن حال ابن بطوطة ، في أهل زمانه حيث يقول :

( ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوكبني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة ، كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتنقل في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دلهي حاضرة ملك الهند وهو السلطان محمد شاه وكان له أعظم مكان . واستعمله في خطة القضاء ( أي ولاه القضاء على المذهب المالكي ) بمذهب المالكية في عمله ، ثم انقلب إلى المغرب ( سافر للمغرب ) واتصل بالسلطان أبي عنان . وكان يحدث عن شأن رحلته ، وما رأى من العجائب بمالك الأرض . وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ، ويأتي من أحواله بما يستغرب به السامعون : مثل أن ملك الهند إذا خرج إلى السفر أحصى أهل مدنته

من الرجال والنساء والولدان ، وفرض لهم رزق ستة أشهر تعطى لهم من عطائه ، وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى الصحراء صحراء البلد . ويظفرون به . وينصب أمامه في ذلك الحفل منجينات ، ترمي بها شكائر الدرامن والدنانير على الناس إلى أن يدخل إيوانه وأمثال هذه الحكايات . فتتاجي الناس بتكتديبه ) .

- وليس ابن خلدون أول من شك فيما قاله ابن بطوطة ، فقد أبدى كاتب الرحلة ابن جزي الشك في بعض ما نقله الرحالة حينما قال : ( وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار . ولم اتعرض للبحث عن حقيقة ذلك ولا اختباره ) . !!

## رجل لا يكذب [الرحالة الأمين]

● وقد عني كثير من علماء المستشرقين بمقابلة أقوال ابن بطوطة بأقوال غيره من جوابيهم في عصره أو في عصر يقرب من عصره ، فبدأ لهم صدق قوله وخلوه من الغلو ، ولو ظهر لهم كذب روایته أو غلوه فيما نقله من الأخبار لنشروه وحرصوا على إذاعته ، وهم على ما نعلم من أهل العلم الوافر والصدق البحثي ، وقوة الاستنباط ، والقدرة على تمحيص الحقائق . والتمييز بين غث القول وسمينه . وأنه لمن الصعب على الناقد العدل أن يقول عن ابن بطوطة : إنه كذب متعمداً فيما رواه فإن أقواله تتم على سذاجة في الطبع . والمتصرف بهذا يبعد عليه أن يتعمد الكذب ، أو يحاول الغش فيما يقول : فقد كان يسوق الحكاية فإذا نسي اسم صاحبها قال : قد أنسيته وقد كانت له مندوحة

عن أن يصف نفسه بالنسیان باختراع اسم لصاحب الحکایة ، كما يفعل بعض الذين یسوقون الحکایات تسلیة للسامعين . وكثيراً ما كان یصنع مثل هذا في اسماء الأماكن والبلدان .

ومن هذا نعلم أن رحالتنا العربي المسلم كان یجتهد في تحری الحقيقة ، ویشعر بأنه مأخوذ بما یقول . وحسبه أن العلامة دوزي سماه : ( الرحالـة الأمـين ) ابن بطوطـة بين الرحـالـين : ونحن إذ نتصـف بالرـجل ونقول فيه ما قـلـنا ، لا نقصد بهـذا أن نـزـلـه مـنـزلـةـ الرـحالـلـينـ فيـ العـصـرـ الـحـاضـرـ منـ الـعـلـمـاءـ وـالـمـفـكـرـينـ ، الـذـينـ يـخـرـجـونـ زـرـافـاتـ وـوـحـدـانـاـ ، لـجـوبـ الـبـلـادـ وـدـرـاسـةـ أـحـواـلـهاـ درـاسـةـ عـلـمـيـةـ صـحـيـحةـ ، قائـمةـ عـلـىـ الـعـلـمـ وـصـدـقـ الـاستـبـاطـ ، وـيـتـعـرـفـونـ أـخـلـاقـ الـأـمـمـ وأـحـواـلـهـمـ ، فـيـ مـعـاشـهـمـ وـطـرـقـ كـسـبـ العـيـشـ عـنـهـمـ ، وـمـلـفـ رـفـيـعـهـمـ وـتـقـدـمـهـمـ فـيـ الـحـضـارـةـ وـالـعـلـمـ ، وـحـالـتـهـمـ السـيـاسـيـةـ وـالـاجـتمـاعـيـةـ فإنـ ابنـ بطـوطـةـ فـيـ رـحـلـتـهـ لـمـ يـكـنـ إـلاـ وـصـافـاـ لـمـشـاهـدـ رـآـهـ ، سـرـهـ بـعـضـهـاـ وأـحـزـنـهـ بـعـضـهـاـ ، فـذـكـرـهـاـ عـلـىـ حـالـهـ بـعـبـارـةـ مـقـبـولـةـ سـاذـجـةـ . وـقـدـ يـعـقـبـ ذـلـكـ بـمـلـاحـظـةـ لـاـ تـخلـوـ مـنـ دـقـةـ نـظـرـ . وـهـوـ بـهـذـاـ قـدـ أـفـادـ عـلـمـ الجـفـرـافـيـةـ ، وـصـرـفـ إـلـىـ مـاـ يـتـعـلـقـ بـالـحـيـاةـ الـعـمـلـيـةـ ، فـصـارـ سـهـلـاـ مـقـبـولـاـ ، بـعـدـ أـنـ كـانـ صـعـباـ مـرـدـوـلـاـ .

## أسلوب الرحلة : رأي وتعليق

إن الذي يقرأ الكتاب من أوله إلى آخره [رحلة ابن بطوطـة] ، يرى أن مقدمته وكذلك خاتمتـه كـتـبـتـ بـعـبـارـةـ فيهاـ شـيءـ منـ التـنـمـيقـ وـالـسـجـعـ المتـكـلـفـ ، وكذلك كلـ مـقـدـمـةـ لـوـصـفـ مـدـيـنـةـ عـظـيـمـةـ . وـيـغـلـبـ عـلـىـ الـقـلـنـ أـنـ هـذـاـ كـتـبـ بـقـلـمـ اـبـنـ جـزـيـ مـحـرـ الرـحـلـةـ ، لـأـنـ هـوـ الـذـيـ تـولـىـ

تلخيص الرحلة والنظر في أبوابها وأقسامها . فيما له من سعة الوقت وانفساح المجال ، للظهور بمظهر الكاتب الأديب في حاشية السلطان ، وما يحمله على التأنيق في عبارة الكتاب وتحسينها جهد المستطاع . ولا سيما إذا أضفنا إلى هذا أن ابن جزي كان يستعين في كتابة بعض الموضوعات برحلة ابن جبير وهي كثيرة التنبية والسبعين .

وفي غير ما تقدم نجد عبارة كتاب رحلة ابن بطوطة سهلة لا تأنيق فيها ولا تكلف ، حتى إنها لتبدو في بعض الموضوعات حالية من الترتيب والتاليف ، على نسق يقرب من إنشاء العامة .

### المستشرقون وعن اهتمامهم بابن بطوطة ورحلته

● جد كثير من المستشرقين في البحث عن نسخ الرحلة الأصلية زماناً طويلاً فعثر الرحالة ( يوركهاردت ) على مختصر لها ، فظهرت به قيمة هذا المؤلف العظيم .

● ثم جاء بعده ( كوسفارين ) فبحث حتى عشر على نسخة أخرى ، فترجم عنها إلى اللاتينية أسفار ابن بطوطة إلى إفريقيا وفارس وببلاد التمار ( الصين وما يجاورها ) والجزائر ونشرها سنة ١٨٨١ م .

● وفي سنة ١٨٢٩ م ترجم القس ( صموئيل لي ) قسماً كبيراً منها إلى اللغة الإنجليزية وطبعه في لندن الإنجليزية . وبعد ذلك قام العالمان الفرنسيان ( دي سلان ) ومعه ( أدوارد ديلوريه ) فترجم كل منها قسماً من الرحلة نشر في المجلة الآسيوية سنة ١٨٤٣ م

و ١٨٤٧ م . وما زال أولئك العلماء ينقبون و يبحثون حتى عثروا على نسخ من الكتاب كاملة ، فقويل بعضها بعض ، و طبعت مع ترجمتها إلى اللغة الفرنسية في العاصمة الفرنسية باريس سنة ١٨٥٣ م - ١٨٥٩ م في مجلدات أربعة ، بتحقيق العالمين المستشرقين (دفريمر) و (سانجوني) .

● وبعد هذا طبعت الرحلة في القاهرة طبعتين عربيتين عن الطبيعة الباريسية في مجلدين ، الأولى سنة ١٨٧١ - ١٨٧٥ م ، والثانية سنة ١٩٠٤ م .

● ثم تم تحقيق الرحلة كاملة في دراسة جيدة وطبعه مؤلفة توقيفاً علمياً جاداً . ولرحلة ابن بطوطة طبعة في هامبورج الألمانية مترجمة عن العربية إلى الألمانية سنة ١٩١١ م ومن ١٩١٢ م طبعها المستشرق (مزيك) . وللرحلة ترجمة تركية اسمها (تقويم وقائع) . وسوف نعود لهذا الموضوع مرة أخرى بتفصيل أكثر .

### قيمة الرحلة

تحوي رحلة ابن بطوطة كثيراً من طريف الأخبار ، ونادر الحكايات ، وعجائب المخلوقات ، في الحيوان والنبات ، فكان لذلك أثراً ظاهراً في تقدم علم الجغرافية ونمو الثروة الأدبية لدى المتأدبين .

وحسب الكتاب أن يشهد بفضله على العلم والأدب الرحالة الشهير والعالم الكبير (سيترن) فيقول ما معناه (أي سائح أوربي يمكنه أن يفتخر بأنه قضى من الزمن ما قضاه ابن بطوطة في البحث

لكشف المجهول من أحوال هذا العدد الكبير من البلدان السجيبة ،  
وتحمل من مشاق الأسفار ما تحمله بصبر وثبات وشجاعة ؟ ) .

بل أي أمة أوربية كان يمكنها أن تجد من ابناها من يجوب البلاد  
الأجنبية وفيه من الاستقلال بالحكم ، والقدرة على الملاحظة والدقة  
في الكتابة ما لهذا الرحالة العظيم ؟ إن ما جاء به من المعلومات  
الصحيحة عن جهات إفريقيا المجهولة لا يقل في فائدته عن معلومات  
( ليون ) الإفريقي ، أما جغرافية بلاد العرب وبخارى وكابول وقندهار  
فقد استفادت من الرحلة كثيراً . وفيما كتبه عن الهند وجزيرة سرنديب  
من المعلومات المفيدة ما يدعوه إنجلizer الهند ( الاحتلال الإنجليزي )  
إلى قراءته ، فإن فيه ما يفيدهم في سياستهم . بقى أن نشير إلى  
الجهد الرائع الذي بذله كل من الأساتذتين الفاضلين / المرحوم أحمد  
العوامري المفتش الأول السابق للغة العربية بوزارة المعارف ،  
والأسناد المرحوم محمد أحمد جاد المولى بك المفتش بوزارة  
المعارف في إخراج مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار ،  
في غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار ، وقاما بتهذيبه وضبط  
غريبه .

### ابن بطوطة من مقدمة رحلته

في مقدمة كتاب رحلة ابن بطوطة نقدم للقارئ استخلاصاً لما  
جاء فيها عن ابن بطوطة :

هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي ، نسبة إلى لوانة إحدى  
قبائل البربر ، المعروف بابن بطوطة ، والملقب بشمس الدين .

والزوايا فلم يترك زاوية إلا زارها ونزل ضيفاً عليها ، حتى إنه زاد من جبل سرنديب المكان الذي يقال أن فيه أثر قدم آدم أبي البشر وهو أول من أخبر عن جماعة الهند المعروفين بالجوكية السحرة ، وتكلم على عاداتهم وتصرفاتهم ومكاشفاتهم ، وعلى الإسماعيلية المعروفين بالفداوية وخصوصهم وفتكم ، وكذلك كان أول رحالة تغلغل في إفريقية وأعطى عنها معلومات قيمة . وقد نزل بعد رحلاته في فاس وأقام في حاشية السلطان أبي عنان من أمراءبني مرين ، يحدث الناس بما رأه وما سمعه ، فأمره السلطان بأن يكتب هذه الأخبار ، ولما كان الهند قد سلبوه في بعض جولاته في الهند كل ما كان قد دونه في مذكراته ، أملى عن ظهر فلبه ما تذكره على كاتب السلطان ، محمد بن جزي الكلبي وهذا ما يفسر لنا ما يرى في سياق رحلته من بعض هفوات جغرافية وباليغات ، وقد سمي مجموعة أخباره (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) . ولكنها تعرف اليوم برحالة ابن بطوطة لم يكن رحالتنا عالماً ولا مفكراً ولا منشأً بلينا ، وإنما كان جواب آفاق دقيق الملاحظة ، يرغب في الاطلاع على كل شيء غريب ، وكان عاطفته الدينية القوية أبى عليه إلا أن يصدق ، دون تمحیص ، كل ما قص عليه من كرامات ، فدونها كما أخبر بها رواتها وأصحابها ، وهكذا لم يكن يمحض ما يقص عليه من أساطير وخرافات ، ك الحديث النساء ذوات الثدي الواحد ، والعفاريت التي كانت تضرب جزائر ذيبة المهل فروي كل ذلك على علاته . على أنه كان أحياناً يقف موقف المشكك في صحة الرواية فيقدم لها بقوله (يزععون) أو يتبعها بقوله : (هذا في زعمهم) تنصلأ من تبعيتها له .

كان مولده في طنجة ، فقيل له الطنجي ومكث فيها إلى أن بلغ الثانية والعشرين فاندفع بدافع التقوى ، وكان على قسط عظيم منها ، إلى الحج وانساق بجهه الأسفار إلى التجول في بلدان العالم المعروف في أيامه ، فطاف في مصر وسوريا وجزيرة العرب ، وإفريقيا الشرقية وأسيا الصغرى ، وروسيا الجنوبية والهند والصين ، والأندلس والسودان ورحلاته ثلاثة استغرقت كلها زهاء تسع وعشرين سنة ، أطولها السفرة الأولى التي لم يترك فيها ناحية من نواحي المغرب والمشرق إلا زارها .

وأكثر ما كانت إقامته في الهند حيث تولى القضاء ستين ، ثم في الصين حيث تولى القضاء سنة ونصفاً فوصف كل من شاهده وعرفه فيها من سلاطين وخواتين ، وأناس رجالاً ونساء ، ووصف ملابسهم وعاداتهم وأخلاقهم وضيافتهم وترتيب ماكلتهم ومشاربهم ، وما حدث في أثناء إقامته من حروب وغزوات ثورات وفتاك بالسلاطين والأمراء ورجال الدين . وكانت عاطفته الدينية تدفعه إلى زيارة المساجد وأسلوبه في سرده أخباره فكه ظريف ، تخفي فيه الأمانة ، حتى ولو كان الأمر متعلقاً بنفسه ، وهذا ما جعل المستشرق دوزي يلقبه : (بالرحلة الأمين) .

ومهما كان من أمر فإن قصة رحلاته من أطرف القصص وأجزلها نفعاً لما فيها من وصف للعادات والأخلاق ، ولما فيها من فوائد تاريخية وجغرافية ومن ضبط لأسماء الرجال والنساء والمدن والأماكن وقد اهتم بها المستشرقون في إنجلترا وفرنسا والبرتغال وألمانيا فترجموها أو ترجموا أقساماً منها إلى لغاتهم وطبعوها وقسمها ابن

جزي إلى كتابين وقف الأول منهما عند وصول صاحبها إلى نهر  
السند ، وأنهى الكتاب الثاني بنهاية الرحلة الثالثة .

## محاولة للتهدیب

- يقول الأستاذان محمد أحمد جاد المولى والأستاذ أحمد العوامري في التقويم لمذهب رحلة ابن بطوطة لما كلفتنا وزارة المعارف تهذيب رحلة ابن بطوطة ، ليقرأها طلبة المدارس الثانوية ، وجدنا أنفسنا أمام عمل خطير لما يقتضيه من بحث وتنقيب ومراجعة ، لكثرة ما وقع في النسخ المطبوعة في مصر من تحرير وتغيير وتبديل ، مما اجترحه جهلة النساخ في خلال تلك الأحقبات المتطاولة .

● ولقد كنا نطالع بعض الفقر فلا نجد لها معنى يساغ ، فتلتمس ما قد يقع بأيدينا من مختلف الطبعات ، علنا نصيب جادة الصواب . ولكننا كثيراً ما كنا نخطئها ، فنفضل أن نمحو تلك الفقر ، ضنانة بوقت القاريء أن يذهب في غير جدوى ، كما محونا ما أسلب فيه المؤلف مما يمل المطالع ويضجره .

- ولا نكتم القاريء أن ابن بطوطة [أو محرر الرحلة] لم يكن ليتحرز أحياناً من أن يجمع قلمه بالفاظ وعبارات يأباهما الحياة . فعمدنا إلى مثل هذا فمحوناه ، توقياً وتحرزاً ، وتزييها للقاريء أن يقع بصره أو يطرق سمعه ما يستحب منه<sup>(٤)</sup> .

---

(٤) لأن التهدیب تقرر له أن يقرأه طلاب من الشباب البافع فلا مانع من حذف =

ولم نبال أيضاً أن نغير بعض العبارات والألفاظ ونهذبها طبقاً  
لأصول اللغة لما ذكرنا آنفأً من عبث النساخ وتحريفهم الكلم  
( الكلام ) عن مواضعه .

على أن لابن بطوطة ( أو محرر الرحلة ) نفسه تعبيرات غريبة ،  
وأساليب قد تختلف ما نعهد له للفصحاء وائمة القول ، فما وجدنا له  
منها مسوغاً أبقيناه ، وإلا أصلحناه ، أو استبدلنا به مرادفاً ، أو شرحنا  
مراده منه في الحاشية ، إن لم يكن عنه متدرج . ورجل حليف أسفار  
وجواب آفاق كابن بطوطة ، لم يكن لديه من الوقت ما يتسع للتحري  
والتأنيق في العبارة : وإنما كانت تقديرات عاجلة ، وملحوظات  
خاطفة ، لخصها فيما بعد ابن جزي كاتب السلطان كما يرى قارئه  
الرحلة في مفتح الكتاب وخاتمه .

وله أيضاً أساليب وألوان مختلفة من التعبير ، وضروب متغيرة من  
الإنشاء : فمن الجزل الرائق العذب ، إلى المضطرب المعقد .  
ويبينما تجده آونة يعني بالتأقه من الشيء بصفه ويطلب في وصفه ، إذ  
هو صامت أمام ما تشاق فيه النفس الشرح الشافي والإيضاح  
المستوعب : ذلك بأنه كان يعتلج في نفسه إذ يكتب من نوازع البأس  
والرجاء ، والخوف والأمن ، والحزن والجذل ، ما نلمسه في  
تضاعيف الكتاب جميعاً .

وبعد : فإن قارئه الرحلة يجد في هذه ( الرحلة ) متعة لنفسه ،

---

= العبارات أو الألفاظ الخادشة للحياء ولكن أن يفعل ذلك في طبعه للنص كله  
فهذا غير مقبول لأن الأمانة العلمية تحتم عدم بتر النص .

ونزهة لخاطره ، وأنساً لوحته ، وشحذاً لقريحته ، لعما فيها من فنون  
الوصف البديع لحوادث وبلاد وأصقاع ، ونبات وحيوان ومعادن ،  
وهيكل وقصور ومصانع وملوك ورجال ، وأخلاق وعادات ،  
وحضارات بذخت ثم اندكت ، ومدنيات بزغت ثم أفلت .

وسيعلم القارئ، أيضاً بمسايرته لهذا الرحالة في جولاته  
واضطراباته ، أنه دقيق الملاحظة ، نافذ البصر ، مر النقد ، كلف  
بدراسة الطائع الإنسانية حريص على أن يودع كتابه من تجاربه  
وملاحظاته كل مفید نافع . فهو بحق إمام علماء تقويم البلدان  
السابقين الأولين الذين ساروا في الأرض فنظروا واخترقوا الأفاق  
فكشفوا .

ويقول الاستاذان المُهَذِّبان : ثم إننا تركنا للرجل جل آرائه  
وعقائده ، وإن كان بعضها من الخرافات والسخاف بمكان ، حرصاً منا  
على أن يبرز للقارئ على حقيقته ، وإبقاء على عصر وبيئة من الحق  
أن يمثل للعيان غير منقوصين .

ويضيفاً : قد عنينا أن نشرح في الحاشية ما قد يتعارض على  
القارئ . ولم نكن في ذلك بمستوعبين ، بل تركنا للقارئ المتنفس  
إكمال النقص ، وشرح الموجز ، ولو أن الوقت انفسح أمامنا لحقتنا  
في هذه السبيل ما نبتغيه من كمال .

ولم نأل جهداً أن نراجع المصادر الموثوق بها لضبط اسماء الرجال  
او الأمكنة ، أو غير ذلك مما يتعرض المؤلف لضبطه . وانتفعنا في  
هذا الباب وغيره من وجوه التمييص والتحقيق بالنسخة المطبوعة في

باريس سنة ١٨٥٨ م مع ترجمتها الفرنسية ، للمستشرقين س . د فرمري والدكتور ب . رسانجوني فقد بذلك هذان الفاضلان في تحري الصحة في طبع الأصل العربي ما ليس وراءه غاية لمستزيد ، وإن كان لا يخلو من هفوات وزلات . وجاءت الترجمة الفرنسية ، فأوضحت ما خفي ، وأبانت ما استغلق . وهكذا يفعل هؤلاء المستشرقين فيما يتناولون من آثار العرب بالدراسة . فهناك التحقيق والتدقيق والعلم الغزير<sup>(١)</sup> .

---

(١) جهد مشكور من الأساتذتين الفاضلين : جاد المولى والعوامري ولكن ليس كل أعمال أهل الاستشراق فيها التحقيق والتدقيق والعلم الغزير ، كما يذكران ، فالسم أحياناً نجده في عسلهم وهذا ليس بخفي على أهل الفطنة والدرائية .

ويجدر بالذكر أن ( مهنيب رحلة ابن بطوطة ) أصدرته وزارة المعارف العمومية المصرية في عام ١٩٣٣ م .

## بين ( ابن بطوطة ) و ( ماركو بولو ) الإيطالي

هذا هو ابن بطوطة المشهور هو نفس ذلك الرحالة الذي كان قد  
أسفاره تطالعنا دوماً بالمدارس الثانوية في البلاد العربية إلى عهد غير  
بعيد .

هو ذلك الرجل الذي يرد المتفقون العرب حين التساؤل عنه  
بابتسامة لها مغزاها فلا تخلون من بعض الاستخفاف .

وهو نفسه الرحالة الذي لا يستغني عن الرجوع إليه أي باحث يود  
الخوض في تاريخ الهند وأسيا الوسطى وإفريقيا القديمة والذي رغم  
من هذا تقف رواياته عن الهند والصين في مستوى واحد مع ( أسفار  
السنديباد ) وعجائب الهند العظيمة . ومهما اختلفت الآراء حول هذا  
الرجل فمن المستحيل إنكار أنه كان آخر جغرافي عالمي من الناحية  
العملية ، أي أنه لم يكن مجرد نقالة اعتمد على كتب غيره دون  
تمحيص ، بل كان رحالة فعلي انتظم محبيط محيط أسفاره عدداً كبيراً من  
الأقطار .

لقد جاوز تجول ابن بطوطة مائة وخمس وسبعين ألف ميل فهو بهذا  
بعد منافساً خطيراً لمعاصره الأكبر منه سناً ( ماركو بولو ) الإيطالي  
البنديقي . ولعل المقارنة بين الإثنين قد بولغ فيها أحياناً ولو أنها لا  
تخلو في بعض الدراسات من طرافة ظاهرة أحياناً فالصياغة الأدبية

لكل الرجالين مثلاً لا ترجع إلى صاحب الرحلة ( ابن بطوطة ) أو ( بولو ) بل إلى شخص آخر تولى ذلك ، كما أن كل المصنفين يكمل أحدهما الآخر بالنسبة لمعلوماتنا عن قارة آسيا ككل .

فماركو بولو الإيطالي عرف الشرق الأقصى جيداً خير مما عرفه ابن بطوطة المغربي وفي مقابل ذلك فمن الطبيعي أن تجد ابن بطوطة لديه إحساس ذاتي بظروف حضارة العالم الذي يصفه أكثر مما كان للرحلة الإيطالي وربما يقرب بين الرجلين أنهما لا يتميzan في المحيط الجغرافي إلى الجغرافيين العلماء ولو أنه يجب الاعتراف بأن وصف المواطن المسلم لخط سير رحلته أدعى إلى الثقة مما عليه الحال مع معاصره باعتراف أهل الاستشراق جميعهم .

## شطحات ورجل لا نعرف طفولته

إلا أن هذا يجب ألا ينسينا بعض شطحات ابن بطوطة المغربي ، فمما لا شك فيه أن وصفه ( لأرض الظلمات ) الواقعة خلف أراضي بلغار الفولجا أي الواقعة على نهر الفولجا الروسي إنما يرجع فيه إلى فكرة غير موثوق بها أو إلى مصدر أدبي أساء فهم روایته كما أن وصفه لبلاد ( طوالسي ) الواقعة في مكان ما من كوشين الصين يضم أساطير سمعها عن بلاد أخرى حتى اختلط الوصف لديه اختلاطاً كلياً . إلا أنه كلما تعرضت الأجزاء المختلفة من وصف رحلته لدراسة دقيقة مفصلة كلما زادت الثقة في صدق روایته يوماً عن آخر إنه رجلنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي . وتشير النسبة الأخيرة إلى علاقته بطنجة التي رأى التور فيها لأول مرة في الرابع والعشرين

من فبراير ١٣٠٤ م - ٧٠٣ هـ ، أما النسبة السابقة لها فتشير إلى أن أصله من قبيلة لواحة البربرية التي انتشرت بطونها على ساحل القارة الإفريقية حتى سواحل مصر . ولكنه في الواقع عربي النشأة والفكر والثقافة .

وبالبربر من المسلمين أيضاً يرتبط اسم أسرته (بطوطة) الذي أثبت صحة نطقه تشديد الطاء بصفة قاطعة المستشرق (فيشر) في عام ١٩١٨ م ولو أن هذا لم يجد طريقه إلى الدوائر العلمية إلا بصورة بطيئة .

ولا علم تفصيلي لنا بسني حياته الأولى ولا بسيرة حياته بوجه عام بخلاف ما ذكر هو عرضاً في سياق رحلته ، ويبدو أنه قد حصل على ما تيسر من العلم بمسقط رأسه مع ميل واضح إلى الفقه وفقاً للمذهب المالكي والسائل في شمال إفريقيا ، ولا شك أنه قد تمعن بعض المعرفة في هذا المجال ، فقد حدث له أن شغل في خلال رحلته الطويلة منصب القضاء وهو في ريعان شبابه غير أنه لا يخلو من غرابة أنه لم يخلف وراءه أي نتاج أدبي ، إذ لم يرد في كتاب الرحلة أو في المصادر الأخرى ذكر مؤلفات أدبية منسوبة إلى ابن بطوطة .

وكان لابن بطوطة كغيره من المثقفين شعر جيد (كلاسيكي) وكان يحب رفع قصائده إلى من شملوه برعايتهم أي أنه كان يمدحهم مدحأ تقليدياً . ومن المؤكد أن الحافز لخروج ابن بطوطة المغربي إلى رحلته وتجواله هو ذلك الحافظ الذي لعب الدور الكبير في إنجازات الرحالة ، وعلماء الجغرافية العرب وكذلك علماء الفلك والتاريخ وأعني الرغبة في اداء فريضة الحج . وهو يروي ذلك بقوله : ( قال

الشيخ أبو عبد الله : كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد ، عام خمسة وعشرين وسبعيناً ، فاقصدأً حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر الرسول (عليه أفضـل الصلاة والسلام ) ، منفرداً عن رفيق أنس بصحبته ، وركب أكون في جملته ، لباعث على النفس شديد العزائم ، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم (جمع حيزوم : الصدور) فجزمت (فعزمت) أمري على هجر الأحباب من الإناث والذكور ، وفارقت وطني مفارقـة الطـيور للوكر ، وكان والـدي بـقيـدـ الـحـيـاةـ فـتـحـمـلـتـ لـبـعـدهـماـ وـصـباـ (ـمـرـضاـ)ـ وـلـقـيـتـ كـمـاـ لـقـيـاـ مـنـ الفـرـاقـ نـصـابـ وـسـنيـ يـوـمـ ثـنـانـ وـعـشـرونـ سـنةـ ) .

واعتقد أن ابن بطوطة كان يبني أداء فريضة الحج فحسب ولم يدر بخلده أن عصـاـ التـرـحالـ ستـلـقـيـ بهـ فيـ مـخـلـفـ بـلـادـ المـعـمـورـةـ ،ـ فـلـمـ يـكـتـبـ لـهـ العـودـةـ إـلـىـ وـطـنـهـ الـأـمـ إـلـاـ بـعـدـ أـكـثـرـ مـنـ رـبـعـ قـرنـ .

وخط سير رحلة ابن بطوطة معروض لنا منذ اللحظة الأولى لتركه وطنه إلا أنه ليس من النادر أن يتقطع خط الرواية أو يضطرب سياق العرض ، وهو على آية حال يسوقنا إلى لحظة عودته إلى وطنه الأم .

ولعل الإطار الجاف الذي يحتوي قصة الرحلة يصف بصورة أبلغ من أي شيء آخر المدى الواسع الذي بلغه تجوال ابن بطوطة فقد بدأ تحركه من طنجة مارأـ فيـ طـرـيقـهـ بـ (ـ تـلـمـسانـ -ـ مـلـيـانـ -ـ الـجـزـائـرـ -ـ بـجاـيـةـ -ـ قـسـطـنـطـنـيـةـ -ـ بـونـةـ -ـ تـونـسـ -ـ سـوـسـةـ -ـ سـفـاقـسـ -ـ قـابـسـ -ـ طـرابـلسـ -ـ الـغـرـبـ -ـ لـبـدـةـ -ـ مـسـارـطـةـ -ـ سـرـتـ )ـ حـتـىـ بـلـغـ مـدـيـنـةـ الإـسـكـنـدـرـيـةـ المـصـرـيـةـ .

## من عيذاب إلى الشام

ولما وصل إلى صحراء عيذاب وجد (الحدري) سلطان البحيرة يحارب المماليك وليس الأتراك كما قال ، وقد خرق المراكب وهرب المماليك أمامه ، فتعذر سفره في البحر ، فباع ما كان أعده من الزاد ، وعاد مع العرب الذين اكتروا معه الجمال إلى صعيد مصر ، فوصل إلى مدينة قوص وانحدر منها في النيل ، فبات بمصر ليلة واحدة ، وقصد بلاد الشام وكان ذلك في منتصف شهر شعبان سنة ٥٢٦ هـ ، فوصل إلى مدينة بليس ، ثم إلى الصالحية ، ثم سيناء وغزة إلى بلاد الشام .

نعود لقول : أن ابن بطوطة غادر الإسكندرية إلى دمياط فركب نهر النيل إلى القاهرة التي كانت آنذاك تمر على فترة من الازدهار أيام عصر المماليك وإن لم تخلو من شوائب ومنفصالات يعرفها كل من يتصدى لدراسة العصر المملوكي بفتراته المختلفة .

هذه الفترة أحدثت في نفسه أثراً يماثل الأثر الذي أحدثه في وقتها مصر الفاطمية على (ناصرو خسرو) ولا ننسى له ما سجله عن هذه الفترة المضطربة سياسياً وفكرياً . والمعروف أن (ناصرو خسرو) زار مصر سنة ٤٣٩ هـ فرأى حوانب الصاغة مكتظة بما فيها من جواهر ثمينة ، ورأى محلات تغيير العملة وبها كميات كبيرة من العملات المتعددة ، وهذه المحلات وتلك كثيراً ما كانت تترك مفتوحة ويدعوها أصحابها ويذهبون للصلة أو لأمر من الأمور ، فقد كان الأمن متشاراً ، والرخاء شاملًا ، فلم يكن الناس حاجة إلى السرقة أو الخطف .

وما زلنا نذكر وصف خسرو لثراء الخليفة الفاطمي ونسجله ضمن  
أحاديثنا عن الدولة الفاطمية .

إذن فكرة زيارته للشام واتته بعد عودته للقاهرة بعد أن تعذر عليه أن  
يقل إحدى السفن إلى جدة من ميناء عيذاب على البحر الأحمر حيث  
الحرب مشتعلة بين قبائل الباجة المتمردة والمماليك ، وأتته فكرة  
زيارة الشام كي ينضم إلى قافلة الحجاج من دمشق السورية ، واغتنم  
هذه الفرصة فزار في طريقه فلسطين العربية ليصف لنا المسجد  
الأقصى وبيت المقدس الشريف ، وقبة الصخرة المباركة ، وبعض  
المشاهد المباركة بالقدس الشريف ، وذكر بعض فضلاء القدس ،  
ثم وصف مدينة طرابلس اللبنانية ، ومدينة حلب ، ووصف دمشق  
العاصمة السورية ، وذكر جامع دمشق المعروف بجامع بنى أمية ،  
وذكر المدرسين والمعلميين به ، وذكر مدارس دمشق وأبوابها  
ومشاهدتها ومزاراتها ، وذكر أرياض دمشق وقاسبون ومشاهده  
المباركة ، وذكر الربوة والقرى التي تتوالىها ، ذكر الأوقاف بدمشق  
وبعض فضائل أهلها وعاداتهم ، وذكر سماعه بدمشق وإجازة علماء  
دمشق له .

## إلى عرفات الله

بعد دمشق انضم إلى قافلة الحجاج ليزور تبوك ، ويشرب مدينة  
الرسول عليه الصلاة والسلام ومسجده وروضته العطرة ، ذاكراً ابتداء  
بناء المسجد النبوي الشريف ، وذكر المنبر الكريم ، والخطيب  
والإمام بمسجد الرسول ﷺ ، وذكر خدام المسجد الشريف  
والمؤذنين به ، وذكر أمير المدينة الشريفة ، وذكر بعض المشاهد

الكريمة بخارج المدينة الشريفة واصفاً الطريق إلى مكة المكرمة ، ذاكرأ وصفاً مسهاً للكعبة المعظمة والمسجد الحرام شرفه الله وكرمه ، وذكر العيزاب العبارك والحجر الأسعد ، والمقام الكريم ، والحجر والمطاف وزمزم المباركة ، وأبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفة ، وذكر الصفا والمروة ، والجبانة المباركة ، وبعض المشاهد خارج مكة ، والجبال المطيفة بمكة ، وذكر أميري مكة وأهلها وفضائلهم ، وعادتهم في الخطبة وصلاة الجمعة ، وعادتهم في شهر رجب وعمره رجب ، وعادتهم في ليلة النصف من شعبان ، وعادتهم في شهر رمضان المعظم ، وعادتهم في شوال ، وذكر إحرام الكعبة ، وشعائر الحج واعماله ، وكسوة الكعبة ، وذكر الانفصال عن مكة شرفها الله ، والروضة والقبور التي بها .

وأعقب زيارته للأراضي المقدسة بزيارة للعراق ليزور هناك مشاهد الشيعة ، وقبر الإمام علي كرم الله وجهه بالنجف الأشرف ثم مر بالبصرة العراقية وقبلها واسط ، وزار المشاهد المباركة في البصرة قبل أن يستكمل طريقه إلى فارس زار شيراز ثم الموصل العراقية وهو يحدثنا عن مدينة تستر وملك إيندج وتستر ، ويروي لنا حكاية في سبب تعظيمه لقاضي شيراز ، وذكر سلطان شيراز ، وبعض المشاهد بشيراز . ومدينة الكوفة ، ومدينة بغداد العاصمة العراقية ، وذكر الجانب الغربي من بغداد ، ثم الجانب الشرقي منها ، وقبور بعض الخلفاء ببغداد ، وترتيب ملك العراق في رحيله ، والعودة إلى بغداد ، ثم مدينة الموصل ، وسلطان الماردین والرجوع إلى بغداد .

و واضح أن العام قد انصرم مما يسر عليه تأدیة فریضۃ الحج للمرة

الثانية وأقام بمكة المكرمة من عام ٧٢٩ هـ إلى ٧٣٠ هـ (من نهاية عام ١٣٢٨ م ) حتى عوفي من وعكته الصحية التي ألمت به ، وتعرف خلال تلك الفترة على عدد من العلماء ورجال التصوف المقيمين بمكة . ولم يلبث أن ترك مكة إلى جدة ومنها عبر البحر الأحمر إلى الساحل الشرقي لإفريقيا ثم رجع منه إلى اليمن ثم عاد مرة ثانية إلى إفريقيا التي غادرها إلى الساحل الشرقي لبلاد العرب على الخليج الفارسي ، وقد مر في طريقه على سلطنة عمان وهرمز والبحرين . وزار مكة المكرمة للمرة الثالثة فمر في طريقه إليها على اليمامة ثم اجتاز البحر الأحمر إلى ميناء عيذاب ومنها إلى القاهرة .

## الدورة الثانية

أما الدورة الثانية فقد اجتاز فيها بلاد الشام كلها حتى دخل بلاد آسيا الصغرى ( بلاد الأناضول والبلاد المطلة على البحر الأسود ) وفيما يتعلق بهذه البلاد الأخيرة فإن خط سير ابن بطوطة يعتوره خلط شديد ، فقد اجتاز آسيا الصغرى حتى وصل إلى ( سينوب ) على البحر الأسود ثم عبر البحر الأسود فنزل إلى شبه جزيرة القرم عند ميناء ( كفا ) وهي في الانحاد السوفيaticي حالياً ، وكانت إذ ذاك من المستعمرات الجنوبية بالبحر الأسود ، وفيها ولأول مرة سمع رحالتنا ابن بطوطة نوافيس الكنائس تدق .

أما ميناء شبه جزيرة القرم الرئيسي فيسمى ( صوادق ) ويعتبره ابن بطوطة أحد المرافئ العالمية الخمسة الكبرى : مرسى كولم ، ومرسى قالبقوط بلاد الهند ، ومرسى الكفار بصوادق أو سوادق بلاد الأتراك ( القرم ) ، ومرسى الزيتون بلاد الصين وتعرف هذه المدينة

الآن باسم (تشيون) ، ومرسى الإسكندرية العظيم الشأن على حد وصف ابن بطوطة .

وفي طريقه من ابن بطوطة على سلخات (القرم القديمة) فجال في أنحاء القرم وروسيا الجنوبية . ومن هنا بلغ بلغار القولجان ثم خرج من استرخان (حاجي طران) مع قافلة أميرة بيزنطية هي إحدى زوجات الخان أوزبك فبلغ مدينة القدس ومن هناك رجع إلى مملكة الأوردو الذهبي فوصل إلى مقر الخان بمدينة سراي على نهر إيل ، ثم عبر نهر القولجا ليصل إلى چينوة وتركها إلى بخارى ثم إلى أفغانستان ، ودخل الهند الآسية في غرة المحرم من عام ٧٣٤ هـ الموافق الثاني عشر من سبتمبر ١٣٣٣ هـ .

## في دلهي البداية

منذ هذه اللحظة خطاب ابن بطوطة مؤرخنا المسلم إلى الجزء الثاني من وصف رحلته الشهيرة ، ففي دلهي حظا الرجل بدرجة عالية جداً من النفوذ لدى السلطان محمد بن طغلق الذي عينه في منصب قاضي القضاة لمدة خمس سنوات !

وفي تلك الأونة جهز السلطان الهندي مجموعة من الرجال ليكونوا سفارة إلى الصين كان من أعضائها ابن بطوطة ، وكان ابن بطوطة يود الوصول إلى الصين برأ عن طريق قندهار فأبحر من قليقون إلى جزر الملديف (جزائر ذيبة المهل أو ذيبة المهل) القرية من شبه القارة الهندية وهناك أمضى حوالي عامين شغل خلالهما مرة أخرى منصب القضاء وزار سيلان والبنغال (بنجالا) ويبلاد الهند الشمالية

وأندونيسيا ومن هناك اتجه إلى مدينة كانتون بالصين وفي طريق العودة يأخذ سفينة من سومطرة الأندونيسية إلى ظفار الواقعة جنوب شبه الجزيرة العربية ليصلها في عام ٧٤٨ هـ - ١٣٤٧ م ومرة أخرى نراه ضارباً في فيافي إيران والعراق وببلاد الشام ومصر . ثم أدى فريضة الحج للمرة الرابعة .

وبعد ذلك ذهب إلى فلسطين العربية وشهد بها الوباء المخيف الذي اجتاحها عام ٧٤٩ هـ - ١٣٤٨ م واعتقد أنه وباء الطاعون .

## عودة وعودة

عقب ذلك بقليل وفي إبريل من عام ٧٥٠ هـ - ١٣٤٩ م ألحت على ابن بطوطة رغبة جامحة في الرجوع إلى وطنه الأم ، ولعل تواتي الأخبار بازدهار مراكش في عهد السلطان أبي عنان من بنى مرين قد مكن من هذه الرغبة في نفسه فأخذ طريق العودة ماراً على مصر وتونس وفي أثناء هذه الرحلة واته نكرة زيارة جزيرة سردينيا (سردانية) وخلال ذلك تعرض مرتين لهجوم قراصنة البحر ، وعلى الرغم من ذلك فقد حالفه التوفيق فتقدم في طريقه إلى فاس المغربية ماراً على تنس وتلمسان ونزا ، التي علم فيها بوفاة أمه .

بلغ ابن بطوطة بلاط السلطان أبي عنان في نوفمبر من عام ٧٥٠ هـ - ١٣٤٩ م وهناك انتهى به المطاف وقبول بما هو أهل له من التقدير والإجلال ، بيد أن تجوال الرجل لم يقف عند هذا الحد من الترحال فقد بقي قطران إسلاميان لم يكن قد زارهما بعد إحداهما : دولة غرناطة التي لم تستغرق زيارته لها وقتاً طويلاً . وفي طريقه إليها

زار قبر أمه بطنجة المغربية ، ثم عبر مضيق جبل طارق إلى رندة ثم مالقة وأقام بها مدة أطول بعض الشيء من مدة إقامته بغرناطة ، ومن المحتمل أن يكون ابن بطوطة قد عاد مرة ثانية إلى غرناطة وأقام بها مدة أطول من فترة إقامته الأولى ومن المحتمل أيضاً أن يكون قد تعرف على محمد بن جزي الكلبسي كاتب أبي عنان - أحد أمراءبني مرين الذين حكموا مراكش بعد أن طردوا أمراء الموحدين من سنة ١٣٦٩ - ١٥٥١ م - في هذه الأثناء .

محمد بن جزي هو ذلك الرجل الذي كتبت له الأقدار أن يدون أخبار ابن بطوطة ثم رجع ابن بطوطة مرة أخرى إلى فاس المغربية عابراً مضيق جبل طارق للمرة الثانية غير أنه لم يثبت أن خرج في غرة المحرم من عام ٧٥٣ هـ - ١٨ فبراير ١٣٥٢ م في رحلة أطول من تلك بكثير .

## إلى مجاهل إفريقيا

إذا كانت رحلة ابن بطوطة الأولى كانت في الفترة ما بين ١٣٢٥ - ١٣٤٩ م (٢٤ عاماً) ورحلته الثانية من ١٣٤٩ إلى ١٣٥٢ (٣ سنوات ) فإن رحلته الثالثة أو الرحلة الإفريقية كانت ما بين ١٣٥٢ إلى ١٣٥٤ (عامان فقط ) .

الرحلة الإفريقية كلفه بها السلطان أبو عنان العريني ، وكان وجهتها أعمق القارة السمراء .

وقد ظل وصف هذه الرحلة الإفريقية لابن بطوطة لا يفضله شيء إلى عهد الرحلات الأوروبية في القرن التاسع عشر .

مر ابن بطوطه سجل ماسة في طريقه إلى تمبكتو بملكه مالي  
القوية التي لم يكن قد مر على اعتناها الإسلام عهد طويل .

وفي طريق العودة وبعد أن زار مناجم معدن النحاس بتكدا بدأ في ١٢ سبتمبر ٧٥٤ هـ - ١٣٥٣ م رحلة شاقة استغرقت بضعة أشهر في صحبة قافلة من تجار الرقيق اخترق خلالها هضبة (هكار) بعد أن مر في طريقه على واحة أغدس ثم عبر جبال أطلس المغربية شتاء في ظروف قاسية من الشظف الشديد إلى أن بلغ فاس المغربية في نهاية عام ٧٥٤ هـ - ١٣٥٣ م بعد أن جال في : دنفلة ، كركر ، مالي ، كارسخو ، كابرة ، أيوالاتن ، تمبكتو ، بودا ، توات ، غات ، زاغري ، تكدا ، هكار .

وفي فاس المغربية أمضى ابن بطوطة البقة الباقي من حياته وهي نيفاً وعشرين عاماً لم يقم خلالها بأي تجوال يذكر حتى وافته منيته في ٧٧٩ هـ عن عمر اقترب من ٧٦ سنة .

## عن المريتين نقول :

كان عهد الأسرة المريةتية خاصة في عهد حكم أبي الحسين الذي امتد من ٧٣١ هـ إلى ٧٤٩ هـ وأبي عنان (٧٤٩ هـ - ٧٥٩ هـ) عهداً ازدهرت فيه الثقافة في جميع أنحاء المغرب الإسلامي ، وقد عد بنو مرين أنفسهم ورثة الحضارة الأندلسية الشرعية على الرغم من أن الدولة العربية بالأندلس كانت لا تزال على قيد الحياة ولو أن رقعتها كانت قد تقلصت بشكل ملحوظ ، لذا فقد اهتم بنو مرين بتشجيع الأدب والأدباء كأسلافهم غرب الأندلس . وقد حفظت لنا

الأثار المعمارية لعصرهم نماذج فنية عظيمة كما اجتذب بلاطهم  
عدهاً كبيراً من الأسماء اللامعة في مجالـي الأدب والعلم فعاشـ في  
كتـفهم ابن خلدون مؤـرخـ الحضـارةـ العـربـيةـ الإـسـلامـيـةـ وـفـيـلـسـوـفـهاـ ،  
ولـسانـ الدـينـ بنـ الخـطـيبـ الشـاعـرـ ، النـاثـرـ ، السـيـاسـيـ الـوزـيرـ ،  
وكـلاـهـماـ كانـ مـعاـصـراـ لـابـنـ بـطـوـطـةـ وـيـدـوـ أـنـ كـانـ لـالـسـلـطـانـ أـبـيـ عـنـانـ  
الـفـضـلـ فـيـ ظـهـورـ رـحـلـاتـ اـبـنـ بـطـوـطـةـ مـنـشـورـةـ فـيـ كـتـابـ ، فـهـوـ الـذـيـ  
عـثـرـ لـهـ عـلـىـ (ـمـحـرـرـ أـدـبـيـ)ـ إـنـ صـحـ هـذـاـ القـوـلـ .

نـعـودـ فـنـقـولـ : إـنـ الـقـرـائـنـ تـشـيرـ إـلـىـ أـنـ رـحـالتـناـ اـبـنـ بـطـوـطـةـ كـانـ مـوـلـعـاـ  
بـالـقـصـصـ وـالـحـكـاـيـاتـ وـبـالـذـاتـ الـخـيـالـيـ مـنـهـاـ أوـغـيرـ الـوـاقـعـيـ وـنـظـرةـ  
وـاحـدـةـ نـلـقـيـهـاـ عـلـىـ بـعـضـ ماـ حـكـاهـ الرـجـلـ فـيـ رـحـلـاتـهـ نـحـسـ بـذـلـكـ عـنـ  
قـنـاعـةـ رـغـمـ ذـلـكـ فـإـنـهـ لـمـ يـحـسـ اـنـجـذـابـاـ شـدـيدـاـ نـحـوـ فـنـ الـكـتـابـ الـأـدـبـيـ  
بـوـجـهـ عـامـ . أـمـاـ كـيـفـ خـرـجـتـ فـكـرـةـ الـكـتـابـ إـلـىـ حـيـزـ الـوـجـودـ فـيـتـضـعـ  
ذـلـكـ جـلـيـاـ مـنـ الـفـاظـ الـمـحـرـرـ ، فـهـوـ فـيـ كـلـامـهـ عـنـ اـزـدـهـارـ فـاسـ فـيـ عـهـدـ  
الـسـلـطـانـ أـبـيـ عـنـانـ يـقـولـ :

«ـ وـكـانـ مـنـ وـفـدـ عـلـىـ بـابـهاـ السـامـيـ ، وـتـعـدـىـ أـوـشـالـ الـبـلـادـ إـلـىـ  
بـحـرـهاـ الطـامـيـ ، الشـيـخـ الـفـقـيـهـ السـائـعـ ، الثـقـةـ ، الصـدـوقـ ، جـوابـ  
الـأـرـضـ وـمـخـتـرـقـ الـأـقـالـيمـ بـالـطـولـ وـالـعـرـضـ ، أـبـوـ عـبـدـ اللـهـ مـحـمـدـ بـنـ  
عـبـدـ اللـهـ بـنـ مـحـمـدـ بـنـ إـبـراهـيمـ الـلـوـاـقـيـ الـطـنجـيـ الـمـعـرـوفـ بـابـنـ بـطـوـطـةـ ،  
الـمـعـرـوفـ فـيـ الـبـلـادـ الـشـرـقـيـ بـشـمـسـ الـدـينـ ، وـهـوـ الـذـيـ طـافـ  
الـأـرـضـ مـعـتـرـباـ ، وـطـوـيـ الـأـمـصـارـ مـخـتـرـباـ ، وـبـاـحـثـ فـرـقـ الـأـمـمـ ، وـسـبـرـ  
سـتـ الـعـربـ وـالـعـجمـ ، ثـمـ أـلـقـىـ عـصـاـ التـسـيـارـ بـهـذـهـ الـحـضـرـةـ الـعـلـيـاـ ، لـمـاـ  
عـلـمـ أـنـ لـهـاـ مـزـيـةـ الـفـضـلـ دـوـنـ شـرـطـ وـلـأـثـيـاـ (ـاـسـتـنـاءـ)ـ ، وـطـوـيـ

المشارق إلى مطلع بدرها بالغرب ، وأثرها على الأقطار إيثار التبر على الترب ، اختباراً بعد طول اختبار البلاد والخلق ، ورغبة في اللحاق بالطائفة التي لا تزال على الحق ، فغمراه من إحسانه الجزييل ، وامتنانه الحفي (المبالغ فيه) الحفيل (الكثير) ، وما أنساه الماضي بالحال ، وأغناه عن طول الترحال ، وحقرا عنده ما كان من سواه يستعظم ، وحقق لديه ما كان من فضله يتوهّم ، ف nisi ما كان أفقه من جولان البلاد ، وظفر بالمراعي الخصب بعد طول الارتفاع .

ويقول المحرر الأدبي لرحلات ابن بطوطة إن الإشارة الكريمة نفذت بأن يعلى ما شاهده في رحلته من الأمصار ، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار ، ويذكر من لقبه من ملوك الأقطار ، وعلمائها الآخيار ، وأوليائها الأبرار ، فأملأى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر ، وبهجة المسامع والتواظر ، من كل غريبة أفاد باجتلاحها ، وعجبية أطرق بانتحانها .

ويصدر الأمر العالي لعبد مقامهم ، الكريم عليهم ، المتنقطع إلى بابهم ، المترشف بخدمة جنابهم ، محمد بن محمد بن جزي الكلبي ، أعانه الله على خدمتهم ، وأوزعه (الله) شكر نعمتهم - أن يضم أطراف ما أملاه (الشيخ أبو عبد الله) من ذلك ، في تصنيف يكون على فوائده مشتملاً ، ولنيل مقاصده مكملاً ، متوجحاً تنقيح الكلام وتهذيبه ، معتمداً إياضه وتقريره ، ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ، وبعظم الانتفاع بدرها عند تجريده عن الصدف ، فامتثل ما أمر به مبادراً ، وشرع في منهله ليكون بمعونة الله عن توفيق الغرض منه صادراً .

ويقول الجزي : إنه نقل معاني كلام ابن بطوطة بالفاظ موفية للمقاصد التي قصدها ، موضحة للمناهي التي اعتمدتها ، وربما أوردت لفظة على وضعه ، فلم أخل بأصله ولا فرعه ، وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ، ولم يتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختيار ؛ على أنه سلك في إسناد صحاحها أقوام المسالك ، وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك ، وقيد المشكل من اسماء المواقع والرجال بالشكل والنقط ، ليكون أفعى في التصحیح والضبط .

وشرح ما أمكنه شرحه من الأسماء العجمية ، لأنها تلتبس بعجمتها على الناس ، وبخطئها في فك معناتها معهود القياس .

ويرجو الجزي أن يقع ما قصده من المقام العلي (أيده الله) بمحل القبول ، وأبلغ من الإغضاء عن تقصيره المأمول ؛ فعوايدهم في السماح جميلة ، ومكارمهم بالصفح عن الهمفوات كفيلة .

وكعادة كتاب عصر ابن جزي يدعو لبني مرين بأن يديم الله عليهم عادة النصر والتمكين ، ويعرفهم عوارف التأييد والفتح المبين .

ثم يبدأ ابن جزي رحلة ابن بطوطة من طنجة مسقط رأسه يوم الثاني من شهر رجب سنة ٧٢٥ هـ .

## عن المحرر الأدبي للرحلة مرة أخرى !!

من الجزء السابق يتضح لنا أن وصف رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظار ، في غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار) ليس من تصنيف ابن بطوطة نفسه ، فالمادة مادة ابن بطوطة ، والرواية روایته

ولكن الصياغة الأدبية الفعلية للرواية عملها الكاتب المغربي ابن جزي ، ولا يزال نص هذه الصياغة موجوداً بالمكتبة الأهلية في باريس العاصمة الفرنسية ، قسم كبير من الكتاب بخط ابن جزي نفسه .

ويمكن الحكم على الطابع العام للكتاب المتضمن لرحلة ابن بطوطة من ألفاظ ابن جزي نفسه والتي يسهل علينا مراجعتها في أي نسخة من نسخ رحلة ابن بطوطة ، ذلك يسهل لنا تحليل شخصية ابن جزي كأديب ، فهو على ما يبدو لنا من أدباء عصر التدهور الأدبي الذي ساد العالم الإسلامي في تلك الأونة .

وبالبحث عن الرجل وإنتاجه الأدبي لا نجد إلا سيرة لحياته ومصنف في نسب النبي ﷺ .

نعرف أن ابن جزي ولد بغرناطة الأندلسية وشغل منصب الكاتب لدى السلطان أبي العجاج يوسف من بنى نصر ( ٧٣٣ هـ - ٧٥٥ هـ - ١٣٣٣ - ١٣٥٤ ) ثم لم يثبت أن اختلف معه فرحل عنه ليشغل نفس المنصب في بلاد السلطان أبي عنان الذي عرف كيف يجذبه إلى شخصه وأتم ابن جزي عمله في ثلاثة أشهر فقد انتهى من ( تقيد ) ألفاظ ابن بطوطة في ديسمبر من عام ٧٥٦ هـ - ١٣٥٥ م وفي فبراير من العام التالي كان قد أكمل ابن جزي صياغتها ولم يعش طويلاً بعد هذا فقد قابل باريه في نفس العام . وعلينا أن نأخذ دائماً في اعتبارنا جميع الظروف التي تم فيها تدوين الرحلة بحيث إننا إذا ما قسونا في حكمنا على ابن بطوطة فيجب ألا ننسى أن كثيراً من اللوم الموجه إليه يمكن أن يكون ناشئاً عن ابن جزي نفسه .

ويمس هذا قبل كل شيء الإطار العام للكتاب الذي هو من وضع ابن جزي فهو يفتقر في كثير من الأحيان إلى التنااسب والتناسق ، ويمكن من خلال الشذور التي ذكرناها أن نحكم على الأسلوب المتكلف الذي لجأ إليه ابن جزي ومبله الواضح إلى السجع والإطناب وهي على أية حال من سمات عصر التدهور الأدبي .

ومن حسن الحظ أن أسلوب الكتاب لا يسير في جميع صفحاته على وتيرة واحدة إذ كثيراً ما تخلل العرض لغة ابن بطوطة القصصية البسيطة التي تميل أحياناً نحو لغة المحادثة محتفظة في ذات الوقت برزانتها وغناها وإلى جانبها ييدو أسلوب ابن جزي ثقيلاً يغلب عليه الحشو والتتكلف كما تتعكس فيه على الدوام محاولة واضحة إلى جميع قصص ابن بطوطة المتفرقة فيوحدة متماشكة وتزويقها بصورة تجعلها أقرب إلى النصوص الأدبية وهو يقتطف من أشعار مختلف الشعراء ، أحياناً دون مناسبة تستوجب ذلك وبلا أدنى صلة تربطها بموضوع كلامه ، وغرضه من هذا أن يكسب كلام ابن بطوطة حيوية أكثر ، وأغلبظن أن ابن جزي قد لجأ إلى الطريقة القديمة في تضمين الأوصاف الماخوذة من المؤلفين السابقين في سياق عرضه دون أن يهتم بالإشارة إلى اسمائهم ، ومن الإجحاف اتهام ابن بطوطة بادعاء المعرفة والعلم بالكتب فهو رجل يحب القصص ولكنه يفضل حكايتها بالفاظه هو ومن المشكوك فيه أن يكون هو المستول عن تضمين قطع كبيرة من كلام ابن جبير في وصف بلاد الشام وببلاد جزيرة العرب وغيره من الرحالة العرب المسلمين دون أن يشير إلى المؤلف أو الكاتب .

وأعتقد أن ذلك الأمر غير مقلق أو مشين في هذا العصر فمن

ال الطبيعي جداً أن نجد مسألة الأخذ من السابقين تضميناً أو اقتباساً أو نصاً في هذه الفترة التي ينعدم فيها وجود منهج علمي متكملاً للتأليف .

ومن الطبيعي أن يكون ابن جزي الغرناطي الأصل على معرفة وثيقة وجيدة بخبايا الأسلوب المقصوق الجزل لمواطنه الأندلسي ابن جبير ، خاصة أن ابن جبير كان يملك شعبية كبيرة في قلوب أهل بلده . فلا غرو أن أراد ابن جزي تحلية مؤلفه بإضافة تلك القطع المونقة ، المسجوعة ، الدقيقة الرواية ، الحسنة العبارة .

إن دور ابن جزي الغرناطي في تحرير كتاب رحلات ابن بطوطة الطنجي كانت له آثار بعيدة ، فقد جهد ما وسعه الجهد في أن يضفي على المصنف طابعاً فنياً متماسكاً لعله لم يعرف في الأصل إطلاقاً .

ومن الواضح أن ابن بطوطة نفسه لم يكن ليستحي من الاعتراف بأنه قد نسي اسم موضع ما أو اسم شخص معين قابله أو حاوره . مثل ذلك القاضي الذي نزل عليه بلاد الشام أو تلك المدينة التي مر عليها في طريقه إلى تمبكتو الإفريقية .

وفي رأينا أن ابن بطوطة لم يدون مذكرات يومية منتظمة خلال تجواله حول العالم ، وعلى افتراض أنه دون مذكرات فخرى بإمكانية فقدها أو ضياعها خلال تجواله الكثير .

نضيف إلى ذلك أن ابن بطوطة لم يدر في خلده أن يكتب هذه الرحلة في عمل متكملاً الجواب لوصف أسفاره بل اكتفى بأن يقعن على سامعيه حوادث معينة وقطعاً متفرقة منها .

لذلك فحين دعت الحاجة إلى الربط بينها في رواية متابعة فإن محررها الأدبي ابن جزي بذل جهداً ليس بالقليل كي يخرج هذا العمل الذي ننظر إليه بالإعجاب كلما صافحنا سطورها .

إن ابن جزي يخرج من القصة بأكثر مما استطاع المؤلف أن يتذكره ، سواء كان ذلك عن طريق توجيهه الاستثنائي لابن بطوطة نفسه أو ربما استثنى بوسائل أخرى كي يتذكر بعض الدقائق في رحلته .

ولم يكن كاتب الرحلة جواباً للأفاق مثل ابن بطوطة ، ولم يكن على معرفة بالبلاد التي تحدث عنها ابن بطوطة ، لذا فليس غريباً أن يقع الكاتب في أخطاء عديدة عندما حاول أن يجمع بين هذه القصص المتفرقة في وحدة متماضكة . ويصدق هذا بصورة واضحة على حديثه عن رحلته في إفريقيا الشمالية عندما أخذ ابن بطوطة لأول مرة طريقه إلى مصر فدلائل الأحوال تشير إلى أن ابن بطوطة كان قد نسي وصف طريقه إليها تماماً وذلك لبعد الزمن الذي ينفي على ربع قرن .

ومن الملاحظ في وصف طريقه لمصر الاختصار الشديد إذا قورن بحقيقة وصف الرحلة ككل .

أما الخلط الشديد المتعلق بوصف آسيا الصغرى فيمكن رده إلى أن ابن جزي الذي حاول بلا شك أن يستخلص صورة منكاملة الجوانب بلزاء العدد الكبير جداً من الأسماء للأماكن التي يذكرها ابن بطوطة .

وكان ابن بطوطة قد قطع على نفسه عهداً بالا يأخذ طريقاً ما أكثر من مرة ، ومن ثم فإن تحديد طريقة سيره بدقة يستلزم معرفة جيدة وواضحة بالأقطار التي سلكها ابن بطوطة .

وعلى نحو ما أراد المحرر الأدبي لرحلات ابن بطوطة فإن ابن بطوطة قد أسبغ على روايته في بعض الأحيان دقة خيالية لا تمت للحقيقة بصلة ، وبالذات فيما يتعلق بتحديد المسافات والأماكن مما كان قد أسدل عليه الزمان ستائر النسيان بالنسبة له ، كما أنه من الصعب علينا بأن نصدق أن عدداً من رحلات ابن بطوطة الكبيرة قد بدأ على وجه التحديد في غرة محرم .

## الحذر والغيرة

ومن المحتمل جداً أن ابن جزي المحرر الأدبي لم يمس جوهر القصص نفسها لذا فلا يزال يتظر إجابة شافية حتى الآن سؤال حائز بين الباحثين الا وهو : إلى أي حد يمكن الاعتماد على صدق رواية ابن بطوطة حتى ولو وضعتنا في اعتبارنا كباحثين مدى فعالية العنصر الذاتي في هذا المجال ؟!

لقد بدأ هذا التساؤل يأخذ بخناق ابن بطوطة الطنجي المغربي منذ لحظة رجوعه إلى أرض الوطن الأم تماماً كما حدث مع نظيره البندقى الإيطالي : ماركو بولو ، بل إنه يمكن استشاف نوع من الحذر حتى عند محرر الرحلات الأدبي ابن جزي الغرناطي ويتبين ذلك في قوله :

« ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله ، بالفاظ موفية للمقاصد التي قصدها ، موضحة للمناجي التي اعتمدها ، وربما أوردت لفظه على وضعه ، فلم أخل بأصله ولا فرعه ، وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ولم أنعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار » .

وعندما أقرأ الكثير من الكتابات عن ابن بطوطة ورحلاته أجده أن هذه الشكوك حول مصداقية بعض ما جاء في الرحلات تسير قدمًا فتارة تفليس وطوراً تفليس ، ولكنها لم تصل في أدبنا العربي أو تاريخنا الإسلامي إلى مرتبة الحدة أو تثير مثل ذلك الاهتمام الذي ترجع صداه في الأوساط العلمية الأوروبية ولعله لم يكن من قبيل الصدفة المجردة أن يسير التارجح بين الشك واليقين في شأن ابن بطوطة بنفس التابع الزمني الذي ساره موقف العلماء المحدثين من الجغرافيين العرب الآخرين .

فرجال البحث الأول الذين تعرفوا على المتن الأصلي لنص رحلات ابن بطوطة بصورة مباشرة مثل : ( كوزغارتن ) و ( لي ) قد وثقوا ثقة تامة في صدق روایته ثم أعقب ذلك فترة من التشكيك بلغت غايتها في موقف النقد المتطرف الذي وقفه ( يول ) من ابن بطوطة . وأخيراً في قرنتنا العشرين نلحظ بدأية من الإعتراف بقيمة من جديد اخذ يكتسب الأنصار يوماً بعد يوم .

وتتمثل وجهة النظر الأخيرة في ان ابن بطوطة يعكس بدقة وإخلاص العصر والمتوسط اللذين عاش فيما وذاك على ضوء الظروف الحضارية السائدة آنذاك .

## ابن بطوطة بين المعتقدات والكرامات

من المسلم به ان ابن بطوطة رجل مسلم قع من أهل القرن الرابع عشر، تقنياً معظمًا للأتقياء والصالحين، يزور قبورهم للتبرك بهم، ويروي كثيراً عن كرمائهم وما ينسب إليهم من أعمال البر، إقامة الزوايا والتكميات، وحبس الأوقاف الكثيرة عليها. وابن بطوطة

مالكي المذهب مثل أهل المغرب العربي .

ويصف بعض المستشرقين هذا السلوك من ابن بطوطة بأنه كان أكثر قرباً إلى المعتقدات الشعبية منه إلى العقيدة الرسمية (السلفية)، يقصدون المعتقدات السائدة في المغرب .

ويبدعون أنه لم يلق بالأ لجوانب الحياة التي تهم عصرنا الحالي .

وقد احتلت المكانة الأولى له المسائل المتعلقة بالعبادة والأوليات والمتضورة فاعتقد في صحة الكرامات التي حكبت له أو التي حدثت له هو نفسه: مثل كرامة الشيخ خليفة السكندرى، وكرامة أبي الحسن الشاذلى الذى اخبره بها ياقوت الحجشى المتضوف السكندرى . . . الخ.

ومن حق ابن بطوطة أن يعتقد أو يؤمن بهذه الكرامات، فأولياء الله لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، والاعتقاد في الأوليات والمتضورة والكرامات لا تنافي الايمان بالله تعالى وبأسس العقيدة الإسلامية .

ويحاول أهل الاستشراق تفسير هذه الكرامات بالإلحاد والنفي، أو السلوك الجماهيري . وقد شهد به نفسه في الهند الآسيوية أي ابن بطوطة، والمبالغة التي ينساق إليها بسهولة الناس والرحلة في كل المصور .

على كل حال فنحن لا نتحدث عن التصوف والصوفية ولا ندافع عنهم لأن ذلك ليس مجاله فنحن مع ابن بطوطة وتحفته التي نعرف من خلالها رحلته، فيعرفها النظار، من غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار .

وبعيداً عما قيل وما سيقال حول هذه النقطة فان رواية ابن بطوطة عند معظم المستشرقين بوجه عام جديرة بالثقة أو أن ابن بطوطة على الأقل قد روى ما اقتنع به أو ما اعتقاده انه الحق أما الأخطاء التي وقع فيها فليست بالقليلة ويجب الا يغيب عنا أنه لم يكن على معرفة بلغات البلاد العديدة التي زارها، وهو فيما عدا العربية كان ملماً ببعض الفارسية وربما التركية كذلك.

إلا أن معرفته بلغات الهند وقفت في الواقع عند حد الفاظ معدودة كان يحب أن يعرضها من حين لآخر ولكن التوفيق جانبها في معظم الأحوال.

أما عن إتصالاته بالسكان المحليين فلم يكن من النادر أن يلجا إلى الاستعانة بمترجم أو دليل مرشد، ولا يخفى بالطبع النتائج التي ترتب على هذا إذ كثيراً ما تسرب الخطأ إلى أسماء البلاد الأجنبية التي يذكرها أثناء سيره كما أنه ليس من المستبعد أنه يختلط لديه ترتيبها، زد على هذا أن التابع الزمني للرحلة غير منتظم وأن التواريف تبدو كأن المحرر قد وضعها خبط عشواء، ونفس هذه المجموعة من الأخطاء وجدت طريقها إلى الاستطرادات التاريخية.

لكل ما سبق فإنه يجب ألا يغرب على الذهن أن ابن بطوطة لم يكن عالماً نقالة، بل اعتمد اعتماداً مطلقاً على ذاكرته الخاصة، وهو كان يتمتع حقاً بذاكرة ممتازة شأنه في هذا شأن جميع ممثلي الثقافة العربية لذلك العهد.

## ابن بطوطة لم يزr الصين !!

يجب الاعتراف في هذا المقام بأن مقدار الأخطاء الزمانية (أي في التواريف) والمكانية (أي في المواقع الجغرافية) ضئيل لدى

ابن بطوطة عند مقارنته ذلك بالعدد الكبير من الواقعين التي يوردها.  
وقد وجهت حملات النقد بصورة خاصة الى أقسام معينة من  
رحلته كوصفه لمدينة القسطنطينية وحكاياته عن الصين.

اما عن الاولى فقد كان إضطراب التواريخ سبباً في حدوث بعض  
الخلط لدى ابن بطوطة ولكن على الرغم من هذا تم الاعتراف في  
اكثر من دراسة صدرت في اوروبا حديثاً تعرف صراحة بأن وصفه  
لمدينة القسطنطينية نفسها يتسم بطابع الصحة. ولا يمكن أن يتبع  
الا عن معرفة حميمة و مباشرة بها فضلاً عن أنه يكشف في هذا  
الصدق كما هو الحال دائمًا عن قوة ملاحظة خارقة.

اما المسألة المستعصية على الحل لدينا بالفعل زيارة ابن بطوطة  
للقرين وكما يقول الباحثة (مجيك) فإنها لم تتضح بعد للحل  
ويجب أن يترك الباب مفتوحاً لها ولا يزال إجماع الأراء أكثر ميلاً إلى  
القول بأن ابن بطوطة لم يزور بلاد الصين.

ويقرر (شيفين) أن القليل من روایاته عن الصين يستأهل الإهتمام  
ولو أنه يجب الاستدراك على هذا بأن روایاته عن الصين ليست  
بالقليلة العدد.

وقد وصل العلامة (فيران) وهو من أكثر خبراء الادب الإسلامي من  
الأوربيين دراية بهذا المجال وبالذات في ادب الشرق الأقصى  
الإسلامي الى نتيجة مؤداها ان ابن بطوطة لم يزور بلاد الهند الصينية  
ولا الصين بل لفق روایته عنهما دون توفيق يذكر من مصادر  
مختلفة.

وفي هذه النقطة نقول: ان ابن بطوطة لا يكشف لنا بوجه عام  
عن معرفة جيدة بالأدب الجغرافي ، واذا ما سلمنا جدلاً بالفرض

القاتل بأن ابن بطوطة إنما اعتمد في وصفه لبلاد الصين على القصص التي سمعها من الآخرين فثمة تفاصيل معينة تجعل من العسير علينا التسليم التام بهذا الفرض، فمن الصعب القول بأن ابن بطوطة من غير أن يزور بلاد الصين قد وجد أن هناك ما يضطربه إلى القول بأنه قد التقى فيها برجل من أهل (سبته) ثم يذكر اسم هذا الرجل بالتفصيل، كما يذكر أيضاً أنه قابل أخاً لذلك الشخص نفسه في منطقة السودان الغربي.

مما لا ريب فيه ان الكلام يدور هنا عن حول شخصيات حقيقة كانت معروفة لكثيرين بمراكمش عند رجوع ابن بطوطة إليها، فلم يكن بوسع ابن بطوطة ان يعرض نفسه أو سمعته للثلب أو القيل والقال من أجل دافع تافه.

ومنذ عهد ليس بالبعيد جداً توصل الباحثة الياباني (ياماوموتو) الى رأى حول رحلة ابن بطوطة في الشرق الأقصى، لا يبلغ في شدته الرأى الذي وصل إليه (فيران) من قبل.

يؤكد (ياماوموتو) إنه لمن العسير القول بأن جميع حكايات ابن بطوطة عن الصين هي من نسج الخيال وحده. حقاً إن وصف ابن بطوطة المفصل لتلك البلاد يشمل عدداً من النقاط الفامضة ولكن لا يخلو أحياناً من فقرات معينة تعتمد على ملاحظة مباشرة عن الصين، فضلاً عن أنه من المستحيل القول بأن روایاته التي وجدت توكيضاً في المصادر الصينية، وفي اسفار ماركوبولو قد كانت من تلقيق مخيّله.

ولاعتبارات ذات طابع عام خضع (ياماوموتو) الياباني روایة ابن بطوطة العربي المسلم عن الصين وبلاد الطوالسي إلى تحليل دقيق.

ولنذكر عرضاً في هذا المقام ان رواية ابن بطوطة عن الصين وعن بلاد الطوالسي الغامضة قد جرت عليه سخرية بعض البحاثة، فالعلامة (يول) مثلاً قال عنها في زمانه (يجب البحث عن تلك البلاد في صفحات الأطلس التي تحتوي الخارطات البحرية مما رسمته يد الطيب الذكر القبطان جاليش).

### طوالسي هي شامبا ثم (ابن خلدون)

وبعيداً عن سخرية (يول) فإن عدداً من الباحثين من لم يصل بهم التشكيك إلى الدرجة التي بلغها (يول) قد حاولوا جادين العثور على هذه الجزر فبحثوا عنها في جزيرة (پرنیو). وفيما بين اليابان وشامبا الواقعة في كوشين صين، وأخيراً وضعوها في (تونكين)، وقد ساق العلامة الياباني (ياماومونو) حججاً قوية للتدليل على أن (طوالسي) إنما هي شامبا بعينها التي كانت تقع بك لاشك على الطريق بين الهند والصين.

ولعل رحالتنا ابن بطوطة كان ضحية القصص التي سمعها ومعظمها قصص خرافى بحث، وهو لم يأتي بها من عندياته بل رواها له المترجمون المحليون عن تلك البلاد والرجل يجهل اللغة المحلية لهذه البلاد أو اللغات واللهجات المحلية لهذه الأقاليم ككل.

لكل ما سبق قوله فإن رواية ابن بطوطة حتى في حالات قصوى مثل بلاد الصين وببلاد طوالسي لم تعد تثير الشكوك والريب في نفس العلماء المعاصرين عما كان الحال عليه من قبل، خاصة ان روایاته عن مواضع مجاورة لجزر الملديف الإسلامية، وقد أكده الرحالة المتأخرون صحتها برمتها.

ومن الطريف ان نسوق ملاحظة لابن خلدون في هذا الصدد، خاصة وان ابن خلدون من المؤلفين القلائل الذين ذكروا اسم ابن بطوطة بل والتفى به شخصياً.

ففي مقدمته الشهيرة وفي الباب الثالث: (في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الأحوال وفيه قواعد ومتهمات) في الفصل الثامن عشر: (في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها) يقول ابن خلدون:

(أنه ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرiven رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة. كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق، وتنقلب في بلاد العراق واليمن والهند، ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند، وهو السلطان محمد شاه، واتصل بملكها لذلك العهد وهو فیروزجوه وكان له منه مكانة واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله، ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان، وكان يحدث عن شأن رحلته، وما رأى من العجائب بمعالم الأرض. وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند، ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون، مثل: أن ملك الهند إذا خرج إلى السفر احصى أهل مدنته من الرجال والنساء والولدان، وفرض لهم رزق ستة أشهر، تدفع لهم من عطائه، وأنه عند رجوعه من سفره، يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد، ويطوفون به، وينصب أمامه في ذلك الحفل منجنقات على الظهر، ترمي بها شکائر الدراهم والدنانير على الناس، إلى أن يدخل أبوانه. وأمثال هذه الحكايات فتاجي الناس بتكتذيبه. ولقيت أيامه وزير

السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت، ففاوضته في هذا الشأن، وأربته. إنكسار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه، فقال لي الوزير فارس: إياك ان تستنكر مثل هذا من أحوال الدول، بما إنك لم تره، ف تكون كابن الوزير الناشيء في السجن. وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه ومكث في السجن سنتين ربي فيها ابنه في ذلك المحبس. فلما أدرك وعقل، سأله عن اللحمان التي كان يتغذى بها فقال له أبوه هذا لحم الغنم. فقال: وما الغنم؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونحوتها، فيقول يا أبا تراها مثل الفار، فينكر علي ويقول: أين الغنم من الفار؟ وكذا في لحم الإبل والبقر، إذ لم يعاين في محبسه من الحيوانات إلا الفار، فيحسبها كلها أبناء جنس الفار، وهذا كثيراً ما يعترى الناس في الأخبار كما يعترى بهم الوساوس في الزيادة عند قصد الإغراب.

فيرجع الإنسان إلى أصوله ، ول يكن مهيمناً على نفسه ، ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصرىح عقله ، ومستقيم فطرته ، فما دخل في نطاق الإمكاني العقلي المطلق ، فإن نطاقه أوسع شيء فلا يفرض جداً بين الواقعات ، وإنما مرادنا الإمكاني بحسب المادة التي للشيء ، فإذا نظرنا أصل الشيء وجنسه وصفاته ومقدار عظمته وقوته ، أجرينا الحكم من نسبة ذلك على أحواله ، وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه . إلى هنا ينتهي كلام ابن خلدون ومن هذا يتبيّن أن عالمين ، أحدهما : ابن خلدون في القرن الرابع عشر والأخر (ياماً موتاً) في القرن العشرين ، قد وصلا في الحقيقة إلى استنتاج واحد مؤداه أنه من المستحيل رفض رواية ابن بطوطة على أساس أنها تتناقض مع الواقع ، ويميل العلم الأوروبي الحديث إلى أن يقف نفس هذا الموقف من ابن بطوطة .

## هذا هو وضع ابن بطوطة!

ووضع ابن بطوطة في تاريخ الأدب الجغرافي واضح للعيان فهو لم يكن جغرافياً نقالة أو من أصحاب الموسوعات أو من الأديباء بل كان شخصاً عادياً للغاية لا يتمتع بأية مواهب خاصة ولا تتعكس في رواياته أفكار عميقه أو ملاحظات دقيقة. وكثيراً ما نلتقي لديه بامثلة لصديق أكثر الروايات إغراباً في الخيال. وعلى الرغم من كل هذا فهو شخص شاهد الكثير وعرف كيف يصور ما شاهده بدقة ويساطة، وقد جعلت منه الأقدار جغرافياً على الرغم منه إن صع هذا التعبير، وصنعت منه لوناً من الرحالة نادراً عند العرب ذلك هو الرحالة الذي يستهدف لذاتها ويضرب في مجال الأرض استجابة لعاطفة لا تقاوم ورغبة جارفة للتعرف على الأقطار والشعوب.

وابن بطوطة رحالتنا على نقيس الغالية العظمى من الجغرافيين العرب فهو لم يجمع مادته من بطون الكتب بل جمعها عن طريق التجربة الشخصية البحتة وعن طريق محادثاته مع شخصيات واقعية تعرف عليها عرضاً من خلال رحلاته. وقد شغل اهتمامه بالمواضيع الجغرافية مكانة ثانية بالنسبة لاهتمامه بالبشر، وهو بالطبع لم يفك في أن يجري أي نوع من البحث والتحقيق في مجال الجغرافية ولعله نتيجة لهذا قد أصبح كتابة نسيخ وحده كوصف للمجتمع الإسلامي والشرقي عامة في القرن الرابع عشر. فهو خزانة تحفل بمادة غنية لا في مجال الجغرافية التاريخية أو تاريخ عصره فحسب بل عن جميع حضارة ذلك العهد.

إني لا أبالغ إذا قلت أن ابن بطوطة مؤرخاً اجتماعياً بمعنى الكلمة، ولا أبالغ أيضاً، إذا قلت أنه أول مؤرخ للمراسم «البروتوكولات»

## ابن بطوطة مؤرخاً اجتماعياً!

نرى ابن بطوطة يعرض لجميع الظواهر الاجتماعية بالسرد حتى تلك التي يهملها المؤرخون عادة فتمر أمام أنظارنا مراسيم البلات الأجنبيّة وأثرياء الشعوب المختلفة، وعاداتها، وتقاليدها، وحرفها، وأصناف الأطعمة والأشربة والأغذية.

لذلك اختلف كل الاختلاف مع هؤلاء الذين يصفون كتاب رحلة ابن بطوطة بأنه كتاب : نظري ، جاف ، بل على العكس من ذلك فهو يفيض بالحيوية والاجتماعية ، ولا يدخل فيه المؤلف بملحوظاته وتعليقاته في أية مناسبة تعرض ، وهو لا يمثل وثيقة ممتازة لتجربة فردية متميزة فحسب بل يقدم كذلك أنموذجًا صادقًا لأفكار وتصورات مواطن مسلم من أهل القرن الرابع عشر.

ولما كان التشريف في الغلبة في الأدب العربي فلم يكن من الغريب ألا يتمتع مصنف ابن بطوطة في القرون التالية بالرواج ، فقد وقف منه العلماء المتزمتون موقف التحفظ وطرحوه جانبًا على أنه ضرب من الحكایات والأساطير الشعبية . بل وليس في علمنا إن أحدًا من المؤلفين المتأخرین قد أشار إليه مجرد إشارة إذا استثنينا الموجز الذي وضعه لرحلة ابن بطوطة في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) شخص يدعى (البيلوني) وتعرفت عليه أوروبه قبل أن يتعرف عليه العالم العربي .

وفي العصر الحديث فقط وذلك بفضل الطبعة الأوروبيّة للمصنف والتي أعيد طبعها مراراً بالشرق ، بدأ أصل الكتاب يجد طريقه شيئاً فشيئاً إلى الأوساط العربية المثقفة في صورة مختارات

مدرسية وكتب المطالعة في أغلب الأحيان وخير مثال لها تلك الكتبيات الثلاثة التي أخرجها في سلسلته المعروفة الأستاذ / فؤاد إفرايم البستانى (عام ١٩٢٧ م).

## ابن بطوطة بالتركية

أما بالنسبة للأتراك العثمانيين في القرن التاسع عشر فلم يكن من السهل أن يمر ابن بطوطة هكذا دون أن يثير اهتمامهم، إن ليس شيء فلوضفه المفصل لآسيا الصغرى على أقل تقدير، ناهيك عما يغفل به كتابه من تفاصيل هامة تتعلق بموضوعات شتى.

وقد ظهرت محاولات لترجمة رحلة ابن بطوطة إلى اللغة التركية منذ السنين الأولى للقرن الماضي وذلك في صحيفه (نقريم وقائمه) والتي كان يحررها كمال أفندي التركي ، أما الترجمة الكاملة للكتاب الذي قام بها الدماماد / محمد شريف فقد ظهرت في أجزاء ثلاثة في نهاية القرن الماضي ١٣١٥ هـ - ١٣١٩ هـ = ١٨٨٧ - ١٨٩١ م.

للعلامة التركي الأستاذ / محمد جودت المتوفى في عام ١٩٣٥ م تعليق وافي على رواية ابن بطوطة عن تقاليد (الأخي) بآسيا الصغرى ومقارنته لذلك مع تقاليد (الفتيان) عند العرب .

## الغرب يعرفه متأخرًا

على أية حال فيجب القول بأن معرفة الاستعراب الأولي بإبن بطوطة جاءت متأخرة بكثير عن معرفته بالإدرسي بل وحتى بابي الفداء ومن العبث كل العبث أن نبحث عن اسمه في موسوعة

(دريل) المعروفة والتي جمعت خلاصة المعارف في ميدان الاستعراب حتى القرن الثامن عشر أو عند (أشنور) الذي سجل إسماء جميع المؤلفات التي ظهرت في عالم الاستعراب إلى عام ١٨١٠. وفي بداية القرن التاسع عشر فقط تم الكشف عن ابن بطوطه لأول مرة. ولم يتم ذلك بواسطة العلماء ولكن بواسطة إثنين من الرحالة هم (زيس) في ١٨٠٨ م و(بوركهارت) الذين استطاعا بحق أن يقدرا زميلهما المغربي حق قدره وإليهما يرجع الفضل في وصول مخطوطات موجز (البليوني) إلى أوروبة لأول مرة بمكتبتي (غوطا) و(كمبريدج) وبهذا أصبح المتن في متناول أيدي العلماء. وكان أول من تناوله بالبحث العلامة (كوزغارتن) وتلميذه (إيت) فقدم الأول تحليلًا عاماً للرحلة وثلاث مقتطفات من المتن تصاحبها الترجمات والتعليقات بعنوان: (الرحلة الفارسية) و(الرحلة المنديقية) و(الرحلة الإفريقية) ١٨١٨ م.

أما (إيت) فقد قام بنفس المهمة فيما يتعلق بوصفي لساحل ملبار ١٨١٩ م، وتمثل خطوة إلى الأمام في دراسة ابن بطوطه تلك الترجمة الكاملة للموجز التي قام بها العلامة الإنجليزي (لي) الأستاذ بجامعة كمبريدج ١٨٢٩ م وعلى النقيض من هذا فإن الترجمة التي قام بها (مورا) في الفترة ما بين (١٨٤٠ - ١٨٥٥ م) معتمداً في ذلك على مخطوطة لرحلات ابن بطوطه حصل عليها من (فاس) في حوالي عام ١٧٩٧ م لم تحظ بالعناية الكافية.

أما أصل الكتاب فإنه لم يتم العثور عليه إلا عندما دخل الفرنسيون إلى الجزائر واستيلانهم على قسنطينة، وأعقب هذا أن أخذت إلى المكتبة الأهلية بباريس الفرنسية.

ومن يزور هذه المكتبة يجد نحو من (٥) مخطوطات اثنتان منها

كاملتان وأبعاض منها بخط يد ابن جزى نفسه المحرر الأدبي للرحلات. وبهذا تمكن العلماء الفرنسيون، بعد محاولات عديدة لنشر وترجمة أقسام من الكتاب، من أن يخرجوها لنا أول طبعة كاملة للرحلة مصحوبة بترجمة فرنسية كاملة للنص في أربعة أجزاء قام بها المستشرقين (دفريمر) وزميله (سانغني) في الفترة ما بين (١٨٥٣م) و(١٨٥٨م) وقد قوبل ظهور الجزء الأول بحماس شديد أظهره العلامة (رينان) في كتاباته عن هذا الجزء وقام بنشر دراسة مطولة عن ابن بطوطة تسم بالكتير من الحيوة. ولا تزال الطبعة الفرنسية في جوهرها إلى أيامنا هذه تمثل الأساس الذي قامت عليه الابحاث المختلفة عن رحلة ابن بطوطة.

وقد أعيد طبعها أكثر من مرة ولكنها - للاسف الشديد - في مجموعها لشخص منظم جاد على الرغم من أنه لا يمكن بالطبع ان ترضي في الوقت الحاضر متطلبات البحث العلمي المعاصر -

غير أن الدراسات المستقلة التي تناولت بحث فصول مختلفة من الرحلة أو عالجت مسائل متعلقة بذلك قد زاد عددها بصورة ملحوظة، ويمكن إعطاء فكرة عامة عن الرحلة (البطوطية) بجمعها من خلال الترجمات التي عملت لأقسام مختلفة من الكتاب، أعني بذلك ترجمات البحاثة (مجيك) في (١٩١١م) وجوب (١٩٢٩) المزودة بتعليقات موجزة مفيدة والتي يمكن أن تعد القول الفصل إلى يومنا هذا في دراسة ابن بطوطة (منافس ماركوبولو). وأن الاهتمام الذي قابلته به أوربة في القرنين التاسع عشر والعشرين يقف برهاناً قاطعاً على صدق قول ابن جزى المحرر الأدبي للرحلات في خاتمة الكتاب.

«ولا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد».

وعندما نراجع مصادرنا ومراجعتنا فإنما نراجع بذلك رجل الرحلات المتميز، أو أخر رحالة عربي كبير، كما وأتنا بقراءتنا عن الرجل نقرأ آخر موسوعات عصر المعاليك، آخر المصنفات الكبيرة التي تقدم عرضاً عاماً للأدب الجغرافي العربي الإسلامي.

## مع جواب الأفاق

ما زلنا نتحدث عن ابن بطوطة المولود عام (١٣٠٤ م) والمتوفى عام (١٣٧٨ م) رحالتنا العربي المشهور (محمد بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم اللواتي (الطنجي) شهدت مدينة طنجة المغربية مولده في شهر ربى الحرام عام (٧٠٣ هـ) في اليوم الرابع والعشرين من فبراير (١٣٠٤ م).

تجمع المصادر أن ابن بطوطة نشا في بسطة من العيش، وسعة من الرزق، ثم خرج من مدينة طنجة المغربية وقد قارب الثانية والعشرين من عمره قاصداً بلاد الحجاز المشرفة لأداء فريضة الحج، فمر بعراقيش والجزائر وتونس وطرابلس الليبية ومصر، ثم قصد إلى ميناء عيداب المصري المطل على البحر الأحمر، فلم ينتهي له العبور، فعاد إلى الفسطاط العاصمة المصرية (القاهرة) ثم رحل عنها إلى فلسطين العربية، ولبنان وسوريا والحجاز، فحج حجته الأولى، ومن مكة المكرمة سافر إلى بلاد العراق، وإلى إيران الفارسية (العجمية) وتركيا وما يجاورها من بلاد الأناضول، ثم عاد إلى مكة حيث حج إلى بيت الله الحرام للمرة الثانية - وظل بمكة

ستين ثم غادر بلاد الحجاز إلى اليمن، وعبر البحر إلى إفريقيا الشرقية ثم رجع منها ماراً بجنوب جزيرة العرب حتى الخليج العربي، فزار سلطنة عمان والبحرين، والإحساء، ثم عاد إلى مكة المكرمة حيث أدى فريضة الحج للمرة الثالثة، ثم خرج من مكة إلى بلاد الهند ماراً بخوارزم، وخرسان وتركمان، وأفغانستان وعاصمتها كابول، ثم بلاد السند وتولى هناك القضاء في دهلي على المذهب المالكي للسلطان / محمد شاه، ولما أراد السلطان محمد أن يرسل وفداً إلى ملك الصين خرج ابن بطوطة فيه، وفي طريق عودته مر بجزيرة سردينيا (سيرلانكا) وجزائر الهند والصين ومن هناك عاد إلى بلاد العرب من طريق سومطرة الأندونيسية عام ١٣٤٧ م، فزار بلاد العجم والعراق وسوريا وفلسطين ومنها عاد إلى مكة للمرة الرابعة ليؤدي فريضة الحج.

وعندئذ تأق إلى المودة إلى أرض الوطن مسقط رأسه، فمر بمصر وتونس والجزائر والمغرب ووصل إلى فاس عام ١٣٤٩ م.

ولم يمكث ابن بطوطة في وطنه طويلاً، بل استأنف رحلته إلى بلاد الأندلس عابراً مضيق جبل طارق إلى غرناطة، ثم عاد مرة ثانية إلى مدينة فاس المغربية، وألقى فيها عصا التسيار.

وعاده الحنين مرة أخرى إلى السفر، فغادر وطنه إلى السودان ومر بسجلمامسة، وتفازا، ومالى، وزاغري، وتمبكتو وهكار، وغيرها حتى إذا ما روى غليله من التنقل والسفر عاد إلى فاس.

وواضح أن ابن بطوطة قد لاقى الكثير من الصعاب في رحلاته والمشقات، وأصيب ببعض الأمراض لذلك نجده يقول في أول رحلاته من الجزائر إلى بجاية أنه أصيب بالحمى. وأيضاً عندما

دخل مدينة بونة أصابته الحمى ، فكان يشد نفسه بعمامة فوق السرج ، خوف السقوط بسبب الضعف الشديد الذي أصابه .

نضيف إلى ذلك وعورة الطريق ، والأمطار والسيول ، والجبال والهضاب والحر الشديد ، وقطع الطريق ، واللصوص .



والقارىء للرحلة يدرك سمة واضحة في ابن بطوطة وهي شدة الحساسية ، والشعور المرهف ، والعاطفة الجياشة ، وكان شعوره بالوحدة في الغربة يدعوه إلى الاكتئاب والانتباش والحزن إذ ترك أهله وعشيرته وخلانه وهو في شرخ الشباب .

ويقول لنا في مقدمة رحلته الطويلة أنه ترك والديه ، فتحملت بعدهما وصباً ، كما لقى من الفراق نصباً .

ولما علم بوفاة والدته في أثناء غيابه في رحلته الأولى تملأه الحزن الشديد ، واستبد به الأسى ، وانكفا على قبرها يبكيها .

ويقول في كتابه : « فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ، ولم يسلم على أحد لعدم معرفتي بهم ، فوجدت من ذلك في النفس ، ما لم أملك معه سوابق العبرة واشتد بكائي فشعر بحالى بعض الحجاج ، فأقبل عليَّ بالسلام والإيتاس » .

وكما قلنا فقد أملأ ابن بطوطة رحلاته على الأديب محمد ابن جزى الكلبي ، فانتهى من تحريرها عام ١٣٥٦ م وأطلق عليها (تحفة النظار في غرائب الأمصار ، وعجائب الأمصار) .

لقد صدر الأمر إلى محمد بن محمد بن جزى الكلبي من السلطان أبي عنان فارس حاكم المغرب المريني أن يضم أطراف ما

أملاء (الشيخ ابو عبدالله) ابن بطوطه الذي طاف الأرض معتبراً، وطوى الأمصار مختبراً، وباحث فرق الأمم، وسبر سير العرب والعجم، ثم ألقى عصا التسيار بحضوره السلطان المريني، لما علم ان لها مزية الفضل دون شرط أو استثناء، وطوى المغاربة الى مطلع بدرها بالغرب، وأثرها على الأقطار إيثار التبر على الترب، إختياراً بعد طول اختبار البلاد والخلق، ورغبة في اللحاق بالطائفة التي لا تزال على الحق، فغمراه من إحسانه الجزييل، وامتنانه الحفي الحفيف، ما أنساه الماضي بالحال، وأغنراه عن طول الترحال، وحقرا عنده ما كان من سواه يستعظم، وحقق لديه ما كان من فضله يتوهّم، فنسى ما كان أله من جولان البلاد، وظفر بالمرعى الخصب بعد طول الارتياح، ونفذ الإشارة الكريمة بأن يملي ما شاهده في رحلته من الأمصار، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار، وعلمائها الأخيار، وأوليائها الابرار، فاملأ من ذلك ما فيه نزهة الخواطر، وبهجة المسامع والنواطر، من كل غريبة أفاد باجتلاقتها، وعجبية أطرف بانتحانها.

لقد ضسم ابن جزى الكلبي ما أملاء عليه ابن بطوطة في تصنيف يكون على فوائد مشتملاً، ولنيل مقاصده مكملاً، متزخجاً تتفتح الكلام وتهذيه، معتمداً إياضاحه وتقريره، ليقمع الاستماع بتلك الطرق، ويعظم الانتفاع بدرها عند تجريده عن الصدق، فامتثل ما أمر به مبادراً، وشرع في منهله ليكون بمعونة الله عن توفيق الغرض منه صادراً.

ونقل ابن جزى معاني كلام ابن بطوطة، باللغاظ موفقة للمقاصد التي قصدها، موضعه للمناجي التي اعتمدها، وربما أورد جميع

ما أورده من الحكايات والأخبار، ولم يتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار، على أنه سلك في إسناد صحاحها أقوام المسالك، وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك، وقيد المشكل من أسماء المواقع والرجال بالشكل والنقط، ليكون أنفع في التصحح والضبط.

وشرح ابن جزي ما أمكنه شرحه من الأسماء العجمية، لأنها تلتبس بعجميتها على الناس ويختلط في ذلك معماها معهودو القياس.

ويرجو المحرر الأدبي لرحلات ابن بطوطة أن يقع ما قصده من أبي عنان المرنيفي محل القبول، وأن يبلغ من الإغضاء عن تقصيره المأمول، فهم عنده عوائدهم في السماح جميلة، ومكارمهم بالصفح عن الهمفوات كفيلة. ثم يدعو لبني مريرم بدوام عادة النصر والتمكين، ويعرفهم عوارف التأييد والفتح المبين.

\* \* \*

لقد كشفت رحلات ابن بطوطة عن أسرار كثيرة من البلاد التي زارها رحالتنا العربي المسلم إذ يعد أول من ذكر - على سبيل المثال - عن استعمال ورق النقد المالي في بلاد الصين ، وعن استخدام الفحم الحجري في الوقود .

لقد كان على حق المستشرق « دوزي » حينما أطلق على ابن بطوطة « الرحالة الأمين » .

لقد أفاد رحالتنا علم الجغرافية بفروعه المختلفة وذلك فيما ذكر من أوصاف للبيئة الطبيعية والتضاريس ، والجغرافية البشرية

والأنثروبولوجي ، وعلم السكان ، والعادات والتقاليد الاجتماعية وما إلى ذلك من أمور نهم علماء الجغرافية والاجتماع والتأثيرات الشعبية ، وغيرهم من المهتمين والدارسين لأحوال الأمم والشعوب .

## أم البلاد

وقد وصف ابن بطوطة مصر في رحلته وصفاً جميلاً معبراً :

« وهي أم البلاد ، وقرارة فرعون ذي الأوتاد » ( سمي بذلك لكثره جنده وخيمهم وأوتادهم ، أو لأنه كان يدق لمن يريد تعذيبه أربعة أوتاد يربطه فيها ثم يعذبه بما يشاء ) ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضية ( الزكية ، المعجبة ، خليقة للخير ) ، المتناهية في كثرة العمارة ، المتباهية في الحسن والنضار ، مجتمع الوارد والم الصادر ، ومحظ رحل الضعيف والقادر ، وبها ما شئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل ، وحليم وسفه ، ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر معروف ، تمواج موج البحر بسكنها ، وتتكاد تضيق بهم على سعة مكانتها ، شيئاً بها يجد على طول العهد ، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد ، فهرت قاهرتها الأمم ، وتملكت ملوكها نواصي العرب والعجم ، لها خصوصية النيل التي جل خططها ، وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها ، وأرضها مسيرة شهر لمجد السير ، كريمة التربة مؤنسة لذوي الغربة . قال ابن جزي - وفيها يقول الشاعر :

لعمرك ما مصر بمصر وإنما  
هي الجنة الدنيا لمن يتبع مصر

فأولادها الولدان والحوار عينها  
وروضتها الفردوس والنيل كثثر

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض :

شاطئ مصر جنةٌ  
لامسها مذخرفت  
بنجلها المطرد  
سوابغ من زرد  
وللرياح فوقه  
مسرودة ما منها  
دوادها بمبرد  
والفلك كالآفالاك بين حادرٍ ومصعد

\* \* \*

ويقول ابن بطوطة إن بمصر وقت زيارته لها من السقائين ( ١٢ )  
الف سقاء ، وأن بها ( ٣٠ ) ألف مكار ( حمار أو حوذى ) ، وبنجلها  
من المراكب ( ٣٦ ) ألفاً للسلطان والرعيَّة ، تمر صاعدة إلى الصعيد  
ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق .

ويتحدث عن جزيرة الروضة المصرية وهي مكان للنزهة  
والترفُّج ، وبه البساتين الكثيرة الحسنة .

ويصف أهل مصر بأنهم ذوو طرب وسرور ولهو ، وقد شاهد بها  
مرة فرجة بسبب شفاء الملك الناصر من كسر أصابع يده فزين كل أهل  
سوق سوقهم ، وعلقوا على حواناتهم الحلل والحلبي وثياب الحرير ،  
ويقعوا على ذلك أياماً .

ويتحدث عن مسجد عمرو بن العاص ويصفه بشرف القدر ،  
والكبير ، واشتهر الذكر ، وأن صلاة الجمعة تقام به والطريق يعترضه

من شرق إلى غرب ، وبشرقه زاوية كان يدرس الإمام الشافعي بها .  
ويقول أن مدارس مصر لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها .

ويصف المستشفى أو ( المارستان ) بأن الواصل يعجز عن وصف محاسنه ، وقد أعد فيه من العراقي والأدوية ما لا يحصر وجباته ألف دينار كل يوم .

أما الزوايا أو الأماكن التي كان يتبعدها الصوفيون فكثيرة ، وكان أمراء مصر يتنافسون في بناء الزوايا ، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم ، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف ؛ ولكل زاوية شيخ وحارس .

ومن عاداتهم في الطعام أن يأتي خادم الزاوية إلى الفقراء صباحاً ، فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام ، فإذا اجتمعوا للأكل ، جعلوا الكل إنسان خبزه ومرقه في إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد .

و الطعام المتصرفه مرتان في اليوم ، ولهم كسوة الشتاء ، وكسوة الصيف ، ومرتب شهري من ثلاثة درهماً للواحد في الشهر إلى عشرين . ولهم الحلاوة من السكر في كل ليلة جمعة ، والصابون لغسل أنواعهم ، والأجرة لدخول الحمام ، والزيت للاستباح .

والمتصرفه أغраб ، وللمتزوجين منهم زوايا على حدة . ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس ، والمبيت بالزاوية . واجتماعهم بقبة داخل الزاوية .

ومن عادات الصوفية أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به . وإذا صلوا صلاة الصبح قرءوا سورة الفتح وسورة الملك

وجزء ( عم ) ، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة ، فيأخذ كل فقير جزءاً ثم يختمون القرآن ويدركون .

ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق ، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر . ومن عاداتهم مع القادر أنه يأتي بباب الزاوية ، فيقف به مشدود الوسط ، وعلى كاهله سجادة ، وبيمناه العكاز ، وبسراه الإبريق ، فيعلم خادم الزاوية بمكانه ، فيخرج إليه ويسأله من أي البلاد أتي ؟ وبأي الزوايا نزل في طريقه ؟ ومن شيخه ؟ فإذا عرف صحة قوله ، أدخله الزاوية وفرش له سجادته في موضع يليق به ، وأراه موضع الطهارة فيجدد الوضوء ، ويأتي إلى سجادته فيحمل وسطه ويصلّي ركعتين ، ويصافح الشيخ ومن حضر ويقدر منهم .

ويواصل ابن بطوطة حديثه عن الصوفية والمتصوفة والزوايا في مصر فيقول أنه من عاداتهم أنهم إذا جاء يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم ، فيذهب بها إلى المسجد ، ويفرشها لهم هناك ، ويخرون مجتمعين ومعهم شيخهم ، فإذا تأتون المسجد ، ويصلّي كل واحد على سجادته ؛ فإذا فرغوا من الصلاة قرموا القرآن على عادتهم ، ثم ينصرفون مجتمعين إلى الزاوية ومعهم شيخهم .

ويتجول ابن بطوطة في قرافات مصر ومزاراتها ويصف كيف تبني هذه القرافات ، وخروج الناس إليها في المواسم الدينية ويزور المشهد الحسيني ، والستة / فقيمة بنت الحسن الأنور ، ومقام الشافعي وقبور العلماء والصالحين الذين لا يضطط لهم الحصر ، وقبور جمة من الصحابة وصدور الخلف والسلف .

\* \* \*

ويذكر نيل مصر واصفاً إياه بأنه يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق ،  
واتساع قطر ، وعظم منفعة ، والمدن والقرى بصفتيه منتظمة ، ليس  
في المعمور مثلها ، ولا يعلم نهر يزدرع عليه ما يزدروع على النيل ،  
وليس في الأرض نهر يسمى بحراً غيره .

قال الله تعالى : ﴿فَإِذَا خَفْتَ عَلَيْهِ فَالْقِيَهُ فِي الْيَمِ﴾ فسماه بما وهو  
البحر .

ومجرى النيل من الجنوب إلى الشمال ، خلافاً لجميع الأنهار .  
ومن عجائبها أنه ابتداء زیادته في شدة الحر عند نقص الأنهار  
وجفوفها ، وابتداء نقصه حين زيادة الأنهار وفيضها .

ونهر السندي مثله في ذلك ، وأول ابتداء زیادته في حزيران وهو  
يونيه ؛ فإذا بلغت زیادته ست عشرة ذراعاً تم خراج السلطان ، فإذا  
زاد ذراعاً كان الخصب في العام ، والصلاح التام ، فإن بلغ ثمانين  
عشرة ذراعاً أضر بالضياع ، وأعقب الوباء ؛ وإن نقص ذراعاً من ست  
عشرة ذراعين ذراعين استنقى الناس وكان الضرر الشديد .

والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار ، وهي : النيل ،  
الفرات ، والدجلة ، وسیحون ، وجیحون . وتماثلها أنهار خمسة  
أيضاً : نهر السندي ويسمى بنج أب (أي الأنهار الخمسة) ، ونهر  
الهند ويسمى الکنك (الکنج) ، وإليه تحج الهند . وإذا حرقوا  
أمواتهم رموا برمادهم فيه .

والنيل في مصر يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ، ولا  
يعبر نهر منها إلا في السفن شتاءً وصيفاً ، وأهل كل بلد لهم خلجان

تخرج من النيل ؟ فإذا أمد ترعنها فاختض على المزارع .

\* \* \*

لقد وصف ابن بطوطة مصر وحالتها الاجتماعية ، وطبيعة المصريين كما تحدث عن نيلها وجماله وعدويته ، ومسجد عمرو بن العاص ، والمدارس ، والمارستانات ، والزوايا ، والقرافة ، والمزارع ، والأهرام ، والمعابد ، والهياكل ، وتحدث عن سلطان مصر الناصر قلاوون الصالحي .

ولا ينسى ابن بطوطة أنه مغربي فيقول أن الزوايا التي بناها قلاوون للفقراء في يسر ياقوض تفوقها زوايا أبي عنان فلا نظير لها في المعمور ، في إتقان الوضع ، وحسن البناء والنقص في الجص ، بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله .

وأعتقد أن هذا الكلام بحذافيره للمحرر الأدبي ابن جزي الذي يعمل في خدمة أبي عنان المريني ولا أعتقد أن ابن بطوطة الرجل الواسع الأفق ينحاز مثل هذا التحيز .

وذكر ابن بطوطة قضاء مصر وأشهر أمرائها وعلمائها وأعيانها ورجالها أيام أن دخلها .

ويصف يوم المحمل ، ويتحدث عن سفره إلى صعيد مصر : منية القائد ، بوش مدينة الكتان المصرية ، دлас ، ببا ، البهسا ، منية ابن خصيب وحكاياته الغريبة الملحقة المأخوذة بالطبع من الرواة والقصاصين الذين التقى بهم ، متنلوبي ومعاصر السكر بها .

ويشير إلى مدى التكافل الاجتماعي بين المصريين والذي يتضح

في منلوى التي بها إحدى عشرة معصرة للسكر . ومن عاداتهم أنهم لا يمنعون فقيراً من دخول معصرة منها ؛ فيأتي الفقير بالخبزة الحارة ، فيطرحها في القدر التي يطيخ السكر فيها ، ثم يخرجها ( وقد امتلات سكرأ ) فيتصرف بها .

ويتجه إلى مدينة منفلوط ، ويصفها بحسن الرواء ، والبناء المونق على ضفة النيل ، شهيرة البركة .

ويسافر إلى أسيوط مدينة رفيعة ، أسوقها بدعة ، والفقراء الذين يأتون للقاضي فيأخذون منه ما يريدون .

وذهب من أسيوط إلى مدينة ( أخميم ) الأصيلة للبنان ، العجيبة الشأن بها المعبد المعروف باسم معبد ( أخميم ) ، مبني بالحجارة ، في داخله نقوش وكتابة للأوائل ، لا تفهم في هذا العهد ، وصور الأفلاك والكتواكب ، وصور الحيوانات وذلك الرجل الذي اتهم بسرقة الآثار من أخميم وأمر بهدم المعبد الأخميمي ، وابتلى بحجارتها مدرسة .

ثم يذكر عادات أهل أخميم في الاجتماع بعد صلاة الجمعة للقرآن وذكر الله ، إلى صلاة العصر ، فإذا صلواها قرءوا سورة الكهف ثم انصرفوا .

وسافر من أخميم إلى مدينة ( هو ) ساحل النيل وضبطها بضم الهاء وفيها يقرأ في كل يوم بعد صلاة الصبح حزباً من القرآن الكريم ، ثم يقرءون أوراد الشيخ أبي الحسن الشاذلي ، وحزب البحر .

ويقول ابن بطوطة أنه التقى في ( هو ) بالسيد الشريف أبو محمد عبد الله الحسني ، من كبار الصالحين متبركاً برؤيته والسلام عليه ، فسأله عن قصده ، فأخبره أنه يريد حجـ بـيت الله الحرام عن طريق جـدة المكرمة ، فقال له : لا يحصل لك هذا في هذا الوقت ، فارجع بـلـنـيـما تـحـجـ أولـ حـجـةـ عـلـىـ الدـرـبـ الشـامـيـ . فـانـصـرـفـ عـنـهـ وـلـمـ يـعـمـلـ عـلـىـ كـلـامـهـ ، وـمـضـىـ فـيـ طـرـيقـهـ حـتـىـ وـصـلـ عـبـذـابـ ، فـلـمـ يـعـكـنـ السـفـرـ ، فـعـادـ رـاجـعاـ إـلـىـ مـصـرـ ، ثـمـ إـلـىـ الشـامـ ، وـكـانـ طـرـيقـهـ فـيـ أـوـلـ حـجـاتـهـ عـلـىـ الدـرـبـ الشـامـيـ بـالـفـعـلـ ، عـلـىـ مـاـ أـخـبـرـ بـهـ الشـرـيفـ .

ثم سافر إلى مدينة ( قنا ) ، وهي صغيرة حسنة الأسواق وبها زار مشهد الصالح الولي عبد الرحيم القنائي ، والتقى في المدرسة السيفية بحفيد شهاب الدين أحمد .

وسافر إلى قوص المدينة العظيمة ، لها خبرات عميقة ، بساتينها سورقة ، وأسواقها مونقة ، ولها المساجد الكثيرة ، والمدارس الأثرية ، وهي منزل ولاة الصعيد ، وبها علماء أجلاء .

وسافر إلى مدينة الأقصر وهي صغيرة حسنة ، وبها قبر الصالح العابد أبي الحجاج الأقصري وعليه زاوية .

وسافر إلى ( أرمـنـتـ ) ، وهي مدينة صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل ، أضافه قاضيها الذي نسي اسمه .

ثم ذهب إلى مدينة ( أسـناـ ) مدينة عظيمة ، متسعة الشوارع ، ضخمة المنافع ، كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع ، لها أسواق حسان ، وبساتين ذات أفنان ، قاضيها أكرمـهـ وأضافـهـ وكتبـ إلىـ نوابـهـ بإـكـرـامـهـ .

ثم سافر إلى أدفو بعد يوم وليلة . ومن مدينة أدفو جرهم النيل إلى مدينة العطوانى واشتروا منها جمالاً ومشي في الصحراء أمنة السبل .  
ونزلوا إلى ( حميشرا ) حيث قبر ولی الله أبي الحسن الشاذلي  
صاحب الكرامات وقضوا ليتلهم في محاربة الضباع .

ووصل إلى عيداب وهي مدينة كبيرة كثيرة الحوت ( الأسماك )  
واللبن ، ويحمل إليها الزرع والتمر من صعيد مصر ، وأهلها  
الجاجة ، وهم سود اللون ، يلتحفون ملائف صفراء ، ويشدون على  
روعتهم عصائب يكون عرض العصابة منها إصبعاً ، وهم لا يورثون  
البنات ، وطعامهم ألبان الإبل ، ويركبون المهاري ويسمونها  
الصهب . وثلث المدينة تحت سلطة الملك الناصر قلاون ، وثلثها  
لملك الجاجة ويعرف بالحدري . وفي عيداب مسجد ينسب  
للقسطلاني ، الذي قابله ابن بطوطة وتبرك به ، كما قابل عدداً من  
الصالحين بها والعلماء الأفضل .

### القدس موعدنا

عاد ابن بطوطة إلى شمال مصر : من عيداب إلى قوص ثم  
بلبيس ، ويفصفها بـان مدينة كبيرة ، ذات بساتين كثيرة ، ولكنـه لم يلق  
بها من يحب ذكره . ثم وصل إلى الصالحية ، ومنها دخل الرمال  
ونزل منازلها ، ويكل متزل منها فندق وهم يسمونه الخان ، ينزله  
المسافرون بـلـوابـهم ، وبـخـارـج كل خـان ساقـية للـسيـل وـحانـوت  
يـشـتـريـ منهـ المسـافـرـ ماـ يـحـتـاجـ إـلـيـ لـنـفـسـهـ وـلـدـابـتهـ .

ومن منازلها ( قطية ) المشهورة وبها تؤخذ الزكاة من التجار ،

وتفتش أمتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث ، وفيها الدواوين والعمال ، والكتاب والشهود ، ومجابها في كل يوم ألف دينار من الذهب .

ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر ، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام ، احتياطاً على أموال الناس ، وتوقياً من الجواسيس .

ويدخل إلى غزة وهي أول بلاد الشام مما يلي مصر ، متسعة الأقطار ، كثيرة العمارة ، حسنة الأسواق ، بها المساجد الكثيرة ، والأسوار عليها ، وكان بها مسجد جامع حسن . والمسجد الذي تقام به الجمعة فيها ، بناء الأمير الجاوي ، وهو أنيق البناء ، محكم الصنعة ، ومنبره من الرخام الأبيض .

ويدخل مدينة الخليل (صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسلیماً) ليصفها ويزور مقابرها : قبر إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، وأزواجهم ، وقبر يوسف ، وقبر لوط ، وقبر فاطمة بنت الحسين - ومن الخليل سافر إلى القدس ، فزار في طريقه إليه قبر يونس ، وزار بيت لحم ، موضع ميلاد عيسى (عليه السلام) .

ووصل إلى بيت المقدس ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل ، ومصعد رسول الله (عليه الصلاة والسلام) ومعرجه إلى السماء .

والبلدة كبيرة منيفة ، مبنية بالصخر المنحوت . وكان صلاح الدين هدم بعض أسوارها عند فتحها ، ثم أتم الملك الظاهر هدمه ، خوفاً

أن يقصدها الروم ( الفرنجة ) فيمنعوا بها . ولم يكن بهذه المدينة نهر وجلب لها الماء في هذا العهد الأمير سيف الدين تنكير أمير دمشق . ويذكر المسجد الأقصى الشريف ، وقبة الصخرة ، وبعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف . كذلك ذكر بعض فضلاء القدس ، وعلماء ديارها .

وزار عسقلان ، ومدينة الرملة ( وهي فلسطين ) ونابلس ، وعجلون ، واللاذقية ، وعكا ، وصور ، وصيادة ، وطبرية ، وبيروت ، وطرابلس اللبنانية ، حصن الأكراد ، وحمص ، وحماء ، ومعرة النعمان ، سرمين ، وحلب .

ومما جاء ذكره في وصف حلب قوله : ( وقلعة حلب تسمى الشهباء ويدخلها جبان ينبع منها الماء ، فلا تخاف الظما . ويطيف بها سوران ، وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء . وسورها متدايني الأبراج ، وقد انتظمت بها العلالى العجيبة ، المفتحة الطبقات ، وكل برج منها مسكن . والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول العهد . وبها مشهد يقصده بعض الناس ، يقال أن الخليل عليه السلام كان يتبعده وهذه القلعة تشبه قلعة رحبة مالك بن طوق على الفرات ، بين الشام وال العراق . ولما قصد قازان طاغية التر مدينة حلب ، حاصر هذه القلعة أيامًا ، ونكض عنها خائباً ) .

بعد أن أسهب في وصف منازل ومساجد وقلاع حلب ومساجدها ومساكنها وزواياها وعلماء ورجال ديارها .

ثم سافر إلى مدينة ( تيزين ) على طريق ( قنسرين ) ، وإنطاكيه التي بخارجها نهر العاصي .

وسافر إلى حصن بغراس ، وحصن القصیر ، وحصن الشعير ،  
ومدينة صهيون ، حصن القدموس ، حصن المنية ، حصن  
العلقة ، وحصن مصياف ، وحصن الكهف وهذه الحصون لطائفة  
يقال لها الإسماعيلية ، ويقال لهم الفداوية .

وزار مدينة جبلة بلد الوالي الصالح إبراهيم بن أدهم - ثم زار مدينة  
اللاذقية وحصن المرقب ، وجبل لبنان .

ومن جبل لبنان إلى مدينة بعلبك وهي من المدن الحسنة القديمة  
من أطيب مدن الشام ( وتحلق بها البساتين الشريفة ، والجනات  
المنية ، وتحترق أرضها الأنهر الجاربة وتضاهي دمشق في خيراتها  
المتناهية ، وبها يصنع الدبس المنسوب إليها ، وهو نوع من الرب  
يصنعونه من العنبر ، ولهم تربة يصفونها فيه فيجمد ، وتكسر القلة  
التي يكون بها فيبني قطعة واحدة ، وتصنع منها الحلوا ، ويجعل  
فيها الفستق واللوز ، ويسمونها حلوا الملين ، ويسمونها أيضاً بجلد  
الفرس .

ويصنع بعلبك الثياب المنسوبة إليها من الأحرام وغيره ، ويصنع  
بها أواني الخشب وملاءعه التي لا نظير لها في البلاد ، وهم يسمون  
الصحاف بالدسوت وربما صنعوا الصفحة وصنعوا صفحة أخرى إلى  
أن يبلغوا العشر ، يخبل لرائيها أنها صفحة واحدة ، وكذلك الملاعق  
يصنعون فيها عشراً واحدة في جوف واحدة .

## دمشق يا جنة المشرق !!

● قدم لنا ابن بطوطة صورة واضحة عن نهضة الصناعة في مدن  
الشام في هذه الحقبة من التاريخ .

- ووصل ابن بطوطة دمشق في يوم الخميس السابع من شهر رمضان المعظم عام ستة وعشرين وسبعمائة (٧ أغسطس ١٣٢٦ م ) ، ونزل فيها بمدرسة المالكية المعروفة بـ (الشرابشية) ودمشق عنده تفضل جميع البلاد حسناً وتتقدمها جمالاً وقد أورد في ذلك قول ابن حبيرة في رحلته :

( أما دمشق فهي جنة المشرق ، ومطلع نورها المشرق ، وخاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها ، وعروض المدن التي اجتليناها . قد تحلت بأزاهير الرياحين ، وتجلت في حلل سندسية من البساتين وحلت موضع الحسن بالمكان المكين ، وتزيينت في منصتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن أولى المسيح ( عليه السلام ) وأمه منها إلى ربوة ذات قرار ومعين ... ظل ظليل ، وماء سلسيل ، ورياض يحيى النفوس نسيمها العليل ، تبرج لنظرها بمتجلل صقيل ، وتناديهم : هلموا إلى معرض للحسن ومقيل . وقد سمت أرضها كثرة الماء ، حتى اشتاقت إلى الظلام ) .

### [وصف شاعري روقي]

ووصف ابن بطوطة بعد ذلك جامع دمشق المعروف بجامعبني أمية ( المسجد الأموي ) وبعض المشاهد والمزارات بها ، وأرباص دمشق ، وجبل قاسيون في شمال دمشق ، والصالحة في سفحه ، والربوة والقرى التي توالياها ، والأوقاف في دمشق وبعض فضائل أهلها وعاداتهم ، ومن ذلك قوله في وصف الحياة الاجتماعية في شهر رمضان المبارك : ( ومن فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده البتة فمن كان من الأمراء والقضاء

والكبار فإنه يدعو أصحابه الفقراء يفطرون عنده ، ومن كان من التجار وكبار السوق صنع مثل ذلك ، ومن كان من الضعفاء والبادية فإنهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم أو في مسجد ويأتى كل واحد بما عنده فيفطرون جميعاً .

وانتقل ركب ابن بطوطة بعد ذلك إلى الحجاز فمرج على المدينة ، ووصف مسجد رسول الله وروضته الشريفة ، ووصف المنبر الكريم ، والخطيب والإمام بمسجد رسول الله ، وخدماته ، ومؤذنيه ، وبعض المشاهد بخارج المدينة الشريفة . ووصف الطريق إلى مكة ، فمكة نفسها ، والمسجد الحرام ، والحجر الأسود ، والحجر والمطاف وزمزم ، والصفا والمروة ، والجبانة المباركة ، والجبال المحيطة بمكة ، وأهل مكة وفضائلهم ، ثم وصف العراق وإيران ، فتركيا والقسطنطينية وغيرها من البلاد .

### عادات الهند

وله في الهند وجزرها ، وجاءه سومطرة وغيرها ، أوصاف شتى ومن طريف ما ذكره في الهند قوله : ( ولما عبرنا نهر السندي المعروف ( بينج اب ) دخلنا مزرعة قصب ، لأن الطريق يسير في وسطها ، فخرج الكركدن - وهو حيوان أسود اللون ، ضخم رأسه كبير متفاوت الضخامة فلذلك يضرب به المثل ، فيقال الكركدن رأس بلا بدن وهو أصغر من الفيل ، ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف وله قرن واحد بين عينيه طوله نحو ذراعين . ولما خرج علينا ، اعترضه بعض الفرسان في طريقه ، فضرب الفرس الذي كان تحته بقرنه فنفذ في فخدنه وقتله !! )

ووصف ابن بطوطة بعض عادات أهل الهند ، مثل إحرق النساء ، فقال ولما انصرف هذا الشيخ رأيت الناس يهربون من عسكرينا ومعهم بعض أصحابنا فسألتهم : ما الخبر ؟ . . . فأخبروني بأن أحد الهند مات ، وأشعلت النار لحرقه ، وامرأته تحرق نفسها معه ، ولما احترقا جاء أصحابي وأخبروني أنها عانقت الميت حتى احترقت معه . ثم اتفق بعد ذلك أن كنت في مدينة قتل منها سبعة من الهند وكان لثلاثة منهم زوجات فاتفقن على إحراق أنفسهن ، وإحرق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مرغوب فيه ولكنه غير واجب ولكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك ، ونسبوا إلى الوفاة ومن لم تحرق نفسها لبس الثياب الخشنة وأقامت عند أهلها يائسة لعدم وفائها ، ولكنها لا تكره على إحراق نفسها .

## الأفراح الهندية

ووصف الأعراس بالهند وصفاً جميلاً رائعاً فقال : ( لما أمر السلطان بتزويع أخته بالأمير غدا ، عين بشأن الوليمة وتقنانها الملك فتح الله المعروف بشونويس ، وعييني لملازمة الأمير ، فأتى الملك فتح الله بالصعيونات تظلل بها أفنية القصر ، وضرب في كل واحد منها قبة ضخمة جداً ، وأتى بأمير المطربين ، ومعه الرجال المغنوون والنساء المغنيات ، والراقصات ، وكلهم مماليك السلطان ، وأحضر الطباخين والخبازين والشوائين وصانعي الحلوي والشراب والأفواية ، وذبحت الأنعام والطيور ، وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوماً ، ويحضر الأمراء والكتار والأعزاء ليلاً ونهاراً فلما كان قبل ليلة الزفاف بليلتين جاء الخواتين من دار السلطان ليلاً إلى القصر

فزيته بأحسن الفرش وجاء الأمير ، وأجلسه على المرتبة ، وجعل له الحناه في يديه ورجليه ، وأقام باقيهن على رأسه ، يغنين ويرقصن وانصرفن إلى قصر الزفاف ، وأقام هو مع خواص أصحابه . . . ) .

## السباع الهندية

ووصف سطوة السبع في الهند فقال : ( إن بمدينة برون سباعاً كثيرة وذكر له بعض أهلها أن السبع كان يدخل إليها ليلاً وأبوابها مغلقة فيفترس الناس حتى قتل من أهلها كثيراً ! ، وكانوا يعجبون من شأن دخوله كما أخبره جار له أن السبع دخل داره ليلاً ، وافتسرت صبياً من فوق السرير ! . وأخبره غيره أنه كان مع جماعة في دار عرس فخرج أحدهم لحاجة ، فاقترب منه أسد فخرج أصحابه في طلبه فوجدوه مطروحاً بالسوق وقد شرب دمه ولم يأكل لحمه . ومن العجب أن بعض الناس أخبره أن الذي يفعل ذلك ليس بسبعين وإنما هو آدمي من السحرة المعروفين بالجوكية ، يتصور في صورة سبع ) !!! .

## نساء الملبار

ووصف ابن بطوطة جزر ( الملبار ) ، وغيرها من جزر المحيط الهندي وتنقل بين أنحاء سيلان ، وذكر أن جميع النساء بالجزيرة لهم قلائد من الياقوت الملون ، و يجعلن في أيديهن وارجلهن عوضاً من الإسورة وجواري السلطان يصنعن منه شبكة يجعلنها على رؤوسهن . ورأى ابن بطوطة على جبهة الفيل الأبيض سبعة أحجار منه ، كل حجر أعظم من بيضة الدجاجة .

## الحيوانات في الصين

وله في جاوة الاندونيسية والصين أوصاف شائقة ، منها أن دجاج الصين وديوكها ضخمة جداً . . . أضخم من الأوز ! ، وبعض الدجاج عندهم أضخم من بعض الأوز عندنا ! أما الأوز عندهم فلا ضخامة له وأراد ابن بطوطة أن يأكل دجاجاً ، فاشترى واحدة وأراد طبخها في إناء واحد فلم يسع لحملها فجعلها في إناءين ! . والدبيك هناك على قدر نعامة ! ، وربما انتف ريشه فيقى كتلة من اللحم حمراء ! وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويعيرونها في أسواقهم ، وهم أقل رفاهية ، وسعة عيش ، وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تحسى أمواله كثرة عليه جهة قطن خشنة . وجميع أهل الصين يختلفون في أواني الذهب والفضة ، ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه في المشي ، ويقولون : هو الرجل الثالثة .

## حرير الصين

والحرير في الصين كثير جداً لأن الدودة [دودة القر] تتعلق بالشمار وتأكل منها فلا تحتاج لكثير من المزونة ، وهو لباس الفقراء والمساكين بها ، وبيع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب من الحرير . كما ذكر ابن بطوطة حقيقة تاريخية هامة في رحلته ، وهي استخدام أهل الصين لورق النقد فقال : ( وأهل الصين لا يتباينون بدينار ولا درهم ، وجميع ما يحصل ببلادهم من ذلك يسكنونه قطعاً كما ذكرناه ، وإنما يبعهم وشراؤهم بقطع كاغد ( ورق ) كل قطعة منها بقدر الكاف ، مطبوعة بطابع السلطان ) وجميع أهل الصين إنما

( فحملهم تراب عندهم معقد كالطفل عندنا ) ولونه لون الطفل ،  
نأتي الفيلة بالأعمال منه فيقطعونه قطعاً على قدر قطع الفحم عندنا ،  
ويشعرون النار فيه كالفحm ، وهو أشد حرارة من نار الفحم . وإذا  
صار رماداً عجنه بالماء ) وجفوه وطبخوا به ثانية ، ولا يزالون  
يفعلون به كذلك إلى أن يتلاشى . ومن هذا التراب يصنعون أواني  
القخار الصيني . ويضيفون إليه حجارة سوداء .

وذكر ابن بطوطة أن أهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات ،  
وأشدّهم إنقاذاً فيها . أما التصوير فلا يحاربهم أحد في إحكامه . ولا  
من الروم ولا من سواهم ومن عجيب ما شاهد أنه ما دخل قط مدينة  
من مدنهم ، ثم عاد إليها إلا ورأى صورته وصور أصحابه منقوشة  
على الحيطان والورق ! . موضوعة في الأسواق ! .

### الخير الأندلسي

ووصف ابن بطوطة رحلته إلى الأندلس بعد ذلك فقال عن  
خيراتها : ( رأيت العنبر يباع في أسواقها بحسب ثمانية أرطال  
بدرهم صغير ، ورمانها المارسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا ، وأما  
التين واللوز فيجلبان منها إلى المشرق والمغرب ) .  
وتنتقل بين مالقة إحدى قواعد الأندلس وغرناطة ، وغيرها .  
وجاس في أرض مراكش وتونس . ثم عاد إلى مدينة فاس .

وأذمع السفر في الرحلة الثالثة إلى السودان وقال : ( إن الملح  
كثير هناك يتصرف السودان كما تصرف بالذهب والفضة ويقطعونه  
قطعاً ويتبايعون به . وقرية تغاري . على حقارتها يتعامل فيها  
بالقناطير المقنطرة من التبر ) .

## الذباب مشكلة

وضايفت ابن بطوطة في رحلته كثرة الذباب ، والماء الزعاق ، وقال أن العمل يكثر في بعض المدن حتى يجعل الناس في أعناقهم خيوطاً فيها الزبىق فيقتله . إلا أنه أشاد بغلات السودان من القمع ، واللوباء ، والأرز ، والسلع العطرية ، والبخور وما إلى ذلك . ومن العادات الحسنة التي ذكرها ابن بطوطة عن أهل السودان أنهم من حفظة القرآن ، ويدفع الآباء ابنائهم إلى حفظه دفعاً . ومر ابن بطوطة مرة بشباب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفي رجله قيد ثقيل ، فقال لمن كان معه : ما فعل هذا ؟ أقتل ؟ ففهم عنه الشاب وضحك وقليل له إنما قيد حتى يحفظ القرآن .

\* \* \*

وهكذا أخذ ابن بطوطة يقص علينا رحلته وعلى هذه الوثيرة مضى يملي مشاهداته ، في كتاب (تحفة الناظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) وقد وجه الانظار إلى رحلته فمضى الناس بين مصدق ومكذب ، وشك ابن خلدون في مقدمته في بعض ما ورد ذكره في هذه الرحلات على أن رحلة ابن بطوطة ظلت موضع التفات كثير من المستشرقين والباحثين فترة طويلة وانتقدتها الفرنجة ، وعلقوا عليها ونقلوا بعضها إلى اللغة اللاتينية ونشروه ، ونقلها (لي) إلى اللغة الإنجليزية ، وطبعت في لندن عام ١٨٢٩ ، ونقلها (ديفريمر) و(سنكونيتي) إلى الفرنسية وطبعت في باريس في عامي ١٨٥٣ و ١٨٥٩ في خمسة مجلدات فيها فهرس أبيجدي وترجم (دي سلان) بعضها إلى الفرنسية عن السودان ، وترجم آخر ما

يختص بأوساط آسيا وترجم ثالث ما يختص بآسيا الصغرى .  
وترجمتها ( مزيك ) إلى الألمانية وطبعت عام ١٩١٢ ، ولها ترجمة  
تركية اسمها ( تقديم وقائع ) ولها مختصر كتبه محمد فتح الله بن  
محمد البيلزني موجود في جامعة كامبردج . وهناك مختصر لكتاب  
مجهول طبع على الحجر عام ١٢٧٨ هـ ( ١٨٦١ م ) . وطبع في  
مصر في مطبعة وادي النيل عام ١٢٨٨ هـ ( ١٨٧١ م ) وفي المطبعة  
الخيرية عام ١٣٢٢ ( ١٩٠٤ م ) وتوفي ابن بطوطه بمراكش عام  
١٣٧٨ للهيلاد في نحو الرابعة والسبعين رحمة الله واسعة جراء  
ما قدم .



**www.lisanarb.com**

## ثبت بمراجع الدراسة

- رحلة ابن بطوطة .
- مجلة العرب - لصاحبها الأستاذ / حمد الجاسر (أعداد متفرقة) .
- أدب الرحلة عند العرب / د . حسني محمود حسنين .
- محمود غنيم وشعره / د . محمد أحمد سلامة .
- سياحة في عالم الأدب والكتابة / د . محمد أحمد سلامة .
- مكانة الأدب العربي بين الأداب العالمية / محاضرة للأستاذ الدكتور / طه حسين في المؤتمر الثاني للأدباء العرب الذي انعقد ببلودان السورية عام ١٩٥٦ .
- الرحلات / د . شوقي ضيف .
- تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ملرید ١٩٦٧ ، رحلة الأندلس ، القاهرة ١٩٦٣ - نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين ، نشرت في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، مجلد ٣ (١) ، ملرید ١٩٥٥ .
- الإدريسي ، أبو عبد الله محمد : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخذونة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، تحقيق دوزي ودي خويه ، ليدن ١٨٦٦ .
- البكري ، أبو عبد الله عبد الله : جغرافية الأندلس وأوروبا ، قطعة

- من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق محمد بن تاویت الطنجي ،  
القاهرة ١٩٥٢ م .
- ابن المنقذ ، أسامة : كتاب الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى ، جامعة  
برينستون بالولايات المتحدة الأمريكية ١٩٣٠ م .
- ابن سعيد : المغرب في حل المغارب ، الجزء الأول ، تحقيق  
شوقى ضيف ، القاهرة ١٩٥٥ .
- ابن جبير ، أبو الحسين محمد : رحلة ابن جبير ، بيروت  
١٩٦٨ .
- ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن علي : صورة الأرض ، بيروت  
(بدون تاريخ) .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن : المقدمة ، القاهرة (بدون تاريخ) .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ،  
بيروت ١٩٥٩ .
- دائرة معارف الشعب / الجزء الثالث ، العدد (٤٩) .
- الموسوعة العربية الميسرة .
- الأعلام - للزرکلي .

## المحتويات

الصفحة	الموضوع
٣	ابن بطوطة - الرجل والرحلة
٥	توطئة .....
٧	رحل يرحل ارتحالاً
٧	الرحلة سلوك إنساني
٩	الارتحال سمة عربية
١١	فائدة الرحلات وأدابها
١١	القيمة العلمية للرحلات
١٣	الرحلات وقيمتها الأدبية
١٤	ميزات أدب الرحلات
١٥	رحالونا العرب قبل وبعد ابن بطوطة
١٨	أصوات على بعض الجغرافيين العرب وعلاقتهم بالرحلة
٢١	أحسن التقسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي
٢٢	ابن خرداذبة
٢٣	الإدريسي
٢٤	سياح وملائكون

## الموضوع

## الصحيحه

٢٦ .....	رحلة الحج
٢٧ .....	اهتمامات هذا الأديب العالم
٢٨ .....	رحلته إلى فلسطين
٣٤ .....	ابن بطولة، الرجل والرحلة
٣٥ .....	ابن بطولة في السودان
٣٦ .....	ابن بطولة وكتاب الرحلة
٣٧ .....	الحياة والارتحال
٤١ .....	حكاية عجائب الأسفار
٤٣ .....	رجل لا يكذب
٤٥ .....	المستشرقون وعنايتهم بابن بطولة ورحلته
٤٦ .....	قيمة الرحلة
٤٧ .....	ابن بطولة من مقدمة رحلته
٥٤ .....	بين ابن بطولة وماركونيولو الإيطالي
٥٥ .....	شطحات ورجل لا نعرف طفولته
٥٨ .....	من عذاب إلى الشام
٥٩ .....	إلى عرفات الله
٦٢ .....	في دلني البداية
٦٤ .....	إلى عاجهل إفريقيا
٧٣ .....	الخنز والخيزة
٧٤ .....	ابن بطولة بين المعتقدات والكرامات

## الموضوع

## الصفحة

ابن بطرطة لم يزر الصين . . . . .	٧٦
ابن بطرطة مؤرخاً اجتماعياً . . . . .	٨٣
الغرب يعرفه متأخراً . . . . .	٨٤
مع جوّاب الأفاق . . . . .	٨٧
أم البلاد . . . . .	٩٢
القدس موعدنا . . . . .	١٠٠
وصف شاعري رقيق . . . . .	١٠٤
عادات الهند . . . . .	١٠٥
الأفراح الهندية . . . . .	١٠٦
السباع الهندية . . . . .	١٠٧
نساء المليار . . . . .	١٠٧
الحيوانات في الصين . . . . .	١٠٨
حرير الصين . . . . .	١٠٨
الخير الأندلسي . . . . .	١٠٩
ثبت المراجع . . . . .	١١٣
المحتويات . . . . .	١١٥